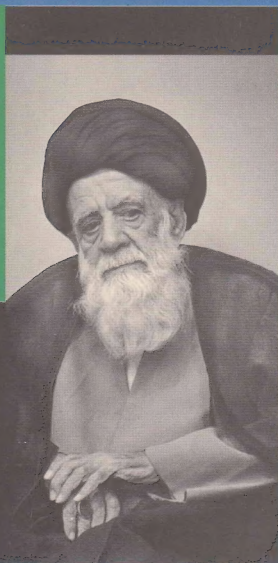


آية الله السيد نعمة الحسيه النجومي



المؤمن في تفسير سورة المؤمن





المؤمن
في تفسير سورة المؤمن

موضوع:

تفسیر: ۱۱۳ (قرآن: ۲۶۲)

گروه مخاطب:

- تخصصی (طلاب و دانشجویان)

- عمومی

شماره انتشار کتاب (چاپ اول): ۱۸۸۰

مسلسل انتشار (چاپ اول و باز چاپ): ۴۴۴۷

کتاب های آیه الله نجومی / ۶

حسینی نجومی، مرتضی، ۱۳۰۳ - ۱۳۸۸.

المؤمن في تفسير سورة المؤمن / سيد مرتضى الحسيني النجومي؛ باهتمام ناصرالدین الأنصاري القمي. - قم: مؤسسه بوستان کتاب (مرکز چاپ و نشر دفتر تالیفات اسلامی حوزه علمیه قم)، ۱۴۳۱ ق. = ۱۳۸۹.

[۲۵۲] ص. - (مؤسسه بوستان کتاب؛ ۱۸۸۰. کتاب های آیه الله نجومی؛ ۶) (قرآن: ۲۶۲. تفسیر: ۱۱۳)

ISBN 978-964-09-0558-6 - ۵۸۰ تومان.

فهرست نویسی براساس اطلاعات فیبا.

Sayyid Morteza Husayni-Nojourni. The Believer in the Exegesis of the Surah of Al-

Mumen (The Believer)

کتابنامه: ص. [۲۴۹] - ۲۵۱.

۱. تفاسیر (سوره مؤمنون). ۲. تفاسیر شیعه - قرن ۱۴. الف. انصاری، ناصرالدین، ۱۳۴۶ - ، مصحح. ب. دفتر تالیفات

اسلامی حوزه علمیه قم. مؤسسه بوستان کتاب. ج. عنوان

۲۹۷/۱۸

BP ۱۰۲ / ۷۴۵ / ح ۵ م ۸

۱۳۸۹

المؤمن في تفسير سورة المؤمن

آية الله السيد مرتضى الحسيني النجومي
باهتمام ناصر الدين الأنصاري القمي

المؤمن في تفسير سورة المؤمن

- المؤلف: آية الله السيد مرتضى الحسینی النجومي
- باهتمام: ناصر الدين الأنصاري القمي
- الناشر: مؤسسة بوستان كتاب
- (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)
- المطبعة: مطبعة مؤسسة بوستان كتاب • الطبعة: الأولى / ١٤٣١ق، ١٣٨٩ ش
- الكمية: ١٢٠٠ • السعر: ٨٠٠٠ تومان

جميع الحقوق © محفوظة

printed in the Islamic Republic of Iran

- العنوان: قم، شارع شهداء (صفائيه)، ص ب ٩١٧ / ٣٧١٨٥، الهاتف: ٧٧٤٢١٥٥-٧، الفاكس: ٧٧٤٢١٥٤، الهاتف: ٧٧٤٣٤٢٦
- المعرض المركزي (١): قم، شارع شهداء (بتعاون أكثر من ١٧٠ ناشر يعرض اثني عشر ألف عنواناً من الكتب)
- المعرض الفرعي (٢): طهران، شارع فلسطين الجنوبي، الزقاق الثاني (بشن)، الهاتف: ٦٦٤٦٠٧٣٥
- المعرض الفرعي (٣): مشهد المقدسة، تقاطع خسروي، مجمع ياس، الهاتف: ٢٢٣٣٦٧٢
- المعرض الفرعي (٤): أصفهان، تقاطع كرمانی، گلستان كتاب، الهاتف: ٢٢٢٠٣٧٠
- المعرض الفرعي (٥): أصفهان، ساحة انقلاب، قرب سينما ساحل، الهاتف: ٢٢٢١٧١٢
- المعرض الفرعي (٦) (للشباب): قم، بداية شارع شهداء (صفائيه)، الهاتف: ٧٧٣٩٢٠٠
- التوزيع: بكتا (توزيع الكتب الإسلامية والإنسانية)، طهران، شارع حافظ، قرب تقاطع كالج، بداية زقاق بامشاده، الهاتف: ٨٨٩٤٠٣٠٣
- وكالات بيع كتب المؤسسة في البلد و خارجه (المنضم إلى ورقة الاستطلاع للآثار في نهاية الكتاب)

عبر البريد الإلكتروني للمؤسسة: E-mail.info@bustaneketab.com

الآثار الحديثة في المؤسسة والتعرف إليها في «وب سايت»: <http://www.bustaneketab.com>

مع جزيل الشكر والتقدير لجميع الزملاء الذين ساهموا في انتاج هذا العمل:

• أعضاء لجنة دراسة الإصدارات • أمين لجنة الكتاب: سيدرضا سجادي نژاد • المنقح و قراءة النص النهائية: ولي قرباني • الملخص العربي: سهيلة خاتمي • الملخص الإنجليزي: مريم خاتمي • فنيّا: مصطفى محفوظي • مسؤول واحدة التنضيد و ترتيب الصفحات: أحمد مؤتمني • المنقذ: ليلا حاج اسماعيلي • تصحيح التنضيد: إلهام قره گوزلو • خبير و ضبط التطبيق: محمدجواد مصطفى • التطبيق: سيدحی میرفتحی زاده • الإشراف و ضبط الإعداد: بيزن سهرابي • الضبط الفني لترتيب الصفحات: حسين عديان • خبير التصميم والفرافيك و تصميم الغلاف: مسعود نجاني • مدير الإنتاج: عبدالهادي أشرفي • مديرية الإعداد: حميدرضا تيموري • برمجة ومراقبة الانتاج: أميرحسين مقدم منش • مديرية المطبعة: مجيد مهدي و يقية الزملاء في قسم الليتوغرافيا ، والطباعة والتغليف.

الفهرس ومواضع الآيات

المقدمة	١١
فضيلة السورة وثواب قراءتها	١٣
[المجادلة بالباطل لإدحاض الحق] تفسير آيه ١	١٧
[في بيان نزول القرآن الكريم من عند الله] تفسير آيه ٢	٢٠
[غفران الذنوب من الله تعالى] تفسير آيه ٣	٢١
[التبعية على محاولة الكفار للمجادلة في آيات الله] تفسير آيه ٤	٢٤
[تكذيب الأنبياء وعاقبته] تفسير آيه ٥	٢٦
[حكم الله تعالى لكفار بالنار] تفسير آيه ٦	٢٨
[لحاملون للعرش الله وذكرهم] تفسير آيه ٧	٣٠
[دعاء نوح لإدخال المؤمنين الجنة] تفسير آيه ٨	٥٩
[الدعاء لوقاية المؤمنين عن استبثات] تفسير آيه ٩	٦٣
[كفران الذين يدعون إلى الإيمان بالله تعالى] تفسير آيه ١٠	٦٥
[اعتراف الكفار بإماتتهم وإحيائهم مرتين] تفسير آيه ١١	٦٨

- ٧٥ [في مذمة الكفار لإنكارهم توحيد الله] تفسير آية ١٢ ٧٥
- ٧٨ [إتمام الحجّة من الله تعالى على الكفار] تفسير آية ١٣ ٧٨
- ٨١ [تذكير المؤمنين بدعوة الله تعالى مخلصين له] تفسير آية ١٤ ٨١
- ٨٣ [في إلقاء الروح على من يشاء من عباده] تفسير آية ١٥ ٨٣
- ٨٧ [مصائب يوم التلاق وتقطع الأسباب] تفسير آية ١٦ ٨٧
- ٩١ [يوم جزاء كلّ نفس بما كسبت ولا ظلم في ذلك اليوم] تفسير آية ١٧ ٩١
- ٩٣ [في بيان يوم الآزفة ومصائبه الهائلة] تفسير آية ١٨ ٩٣
- ٩٦ [إنّ الله تعالى يعلم النظرة الخائنة] تفسير آية ١٩ ٩٦
- ٩٩ [إنّ الله تعالى يفصل بين الخلائق بالحق] تفسير آية ٢٠ ٩٩
- ١٠١ [في سنّة الله تعالى بأخذ المذنبين بذنوبهم] تفسير آية ٢١ ١٠١
- ١٠٤ [إنّ الله تعالى يعذب الكافرين بعد تكذيبهم لأنبيائه] تفسير آية ٢٢ ١٠٤
- ١٠٥ [إرسال موسى بالآيات والمعجزات المبين] تفسير آية ٢٣ ١٠٥
- ١٠٦ [في قول فرعون وهامان وقارون لموسى] تفسير آية ٢٤ ١٠٦
- ١٠٧ [حكم فرعون لقتل أولاد المؤمنين واستحياء نسايتهم] تفسير آية ٢٥ ١٠٧
- ١٠٩ [في مخادعة فرعون بادّعه أنّ موسى يبذل دينكم] تفسير آية ٢٦ ١٠٩
- ١١٢ [استعاذ موسى بربه من كلّ متكبر] تفسير آية ٢٧ ١١٢
- ١١٤ [مؤمن آل فرعون يمنع عن قتل موسى] تفسير آية ٢٨ ١١٤
- ١٢٠ [مناصحة مؤمن آل فرعون قومه عن أذى موسى وقتله] تفسير آية ٢٩ ١٢٠
- ١٢٢ [تحذير مؤمن آل فرعون قومه بنزول العذاب] تفسير آية ٣٠ ١٢٢
- ١٢٤ [تذكير مؤمن آل فرعون قومه بمصائب قوم نوح و...] تفسير آية ٣١ ١٢٤
- ١٢٥ [يوم التناد وعذابه] تفسير آية ٣٢ ١٢٥
- ١٢٧ [عدم تغيير حكم الله تعالى في إضلال من أضله الله تعالى] تفسير آية ٣٣ ١٢٧

- ١٢٨ [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضِلُّ كُلَّ مُسْرِفٍ مَرْتَابٍ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٤
- ١٣٢ [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٥
- ١٣٥ [طَلَبُ فِرْعَوْنَ عَنْ هَامَانَ لِبَنَاءِ صَرْحٍ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٦
- ١٣٦ [قَوْلُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى أَطَّهَ كَاذِبًا] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٧
- ١٣٨ [طَلَبُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ تَبَعِيَّةَ قَوْمِهِ لَهُ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٨
- ١٣٩ [أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ تَسْتَمْتَعُونَ بِهَا] تَفْسِيرُ آيَةِ ٣٩
- ١٤١ [دُخُولُ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ وَارْتِزَاقُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٠
- ١٤٤ [دَعْوَةُ قَوْمِهِ إِلَى الْهَدَايَةِ وَدَعْوَتِهِمْ إِتْيَاهُ إِلَى النَّارِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤١
- ١٤٥ [الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٢
- ١٤٦ [أَنَّ مَا وَى الْمُسْرِفِينَ النَّارَ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٣
- ١٤٩ [فِي تَفْوِيزِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٤
- ١٥٤ [نَتِيجَةُ تَفْوِيزِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٥
- ١٥٩ [شِدَّةُ عَذَابِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي كُلِّ غَدَوٍّ وَعَشِيٍّ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٦
- ١٦٤ [التَّحَاجُّجُ وَالتَّخَاصُّمُ بَيْنَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٧
- ١٦٦ [يَأْسُ الْمُسْتَكْبِرِ عَنِ الدَّفْعِ وَالْإِغْنَاءِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٨
- ١٦٧ [طَلَبُ أَهْلِ النَّارِ مِنَ اللَّهِ التَّخْفِيفَ عَنْهُمْ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٤٩
- ١٦٨ [اسْتِخْفَافُ وَاسْتِهْزَاءُ الْخَزَنَةِ بِأَهْلِ النَّارِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥٠
- ١٧١ [نُصْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِرُسُلِهِ فِي الدُّنْيَا] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥١
- ١٧٣ [لَا يَنْفَعُ مَعْذَرَتُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥٢
- ١٧٦ [وَرَاثَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥٣
- ١٧٧ [اسْتِفَادَةُ أُولَى الْأَلْبَابِ عَنِ الْهَدَايَةِ] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥٤
- ١٧٨ [فِي تَنْجِزِ وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى] تَفْسِيرُ آيَةِ ٥٥

- ١٨٠ [عاقبة مجادلة الكافرين للمؤمنين بغير حجة] تفسير آيه ٥٦
- ١٨٢ [جواب مجادلة الكافرين بخلق الناس] تفسير آيه ٥٧
- ١٨٣ [عدم تساوي العمى والبصير] تفسير آيه ٥٨
- ١٨٥ [عدم علم الناس بإتيان يوم القيامة] تفسير آيه ٥٩
- ١٨٦ [إنَّ يجيب دعوة من دعاه] تفسير آيه ٦٠
- ١٩٨ [في بيان كون الليل سكنا والنهار مبصرًا] تفسير آيه ٦١
- ٢٠١ [إنَّ الله تعالى خالق كل شيء فأينما تولوا فثم وجه الله] تفسير آيه ٦٢
- ٢٠٢ [عاقبة الجاحدين لايات الله تعالى] تفسير آيه ٦٣
- ٢٠٣ [إنَّ الله صورك في أحسن صورة ورزقكم من الطيبات] تفسير آيه ٦٤
- ٢٠٥ [طلب خلوص الدعاء لله تعالى] تفسير آيه ٦٥
- ٢٠٨ [الدعوة لصرف المشركين عن عبادة الأوثان والأصنام] تفسير آيه ٦٦
- ٢١٠ [في بيان مراحل خلقه الإنسان] تفسير آيه ٦٧
- ٢١٣ [في بيان أنَّ إرادة الله تعالى فعله] تفسير آيه ٦٨
- ٢١٥ [في مذمة الذين يجادلون في آيات الله تعالى] تفسير آيه ٦٩
- ٢١٦ [في تهديد الذين كذبوا برسل الله تعالى] تفسير آيه ٧٠
- ٢١٧ [بيان حال المكذِّبون لرسول الله تعالى يوم القيامة] تفسير آيه ٧١
- ٢١٨ [المكذِّبون يسجرون في النار] تفسير آيه ٧٢
- ٢١٩ [مذمة الشرك بالله تعالى] تفسير آيه ٧٣
- ٢٢٠ [بيان أقوال الكافرين يوم القيامة وكيفية استدلالهم] تفسير آيه ٧٤
- ٢٢٣ [في مذمة الكافرين ببيان ماضى عليهم في الدنيا] تفسير آيه ٧٥
- ٢٢٥ [سوء حال المشركين والمستكبرين يوم القيامة] تفسير آيه ٧٦
- ٢٢٦ [أمر الله تعالى رسوله بالصبر في تحمُّل أدى المشركين] تفسير آيه ٧٧

٢٢٩	[إنَّ الله تعالى يذكر نبيّه قصص بعض الأنبياء] تفسير آيه ٧٨
٢٣٣	[من آثار قدرة الله خلق بعض الأنعام للركوب و...] تفسير آيه ٧٩
٢٣٤	[بيان أنواع استفادات الناس عن الأنعام] تفسير آيه ٨٠
٢٣٦	[توبيخ منكري آيات الله تعالى ومذمتهم] تفسير آيه ٨١
٢٣٨	[ترغيب الناس للسير في الدنيا لرؤية إبادة الأقويا] تفسير آيه ٨٢
٢٤٠	[في استحقار المكذّبين للرسل أنبياء الله بما جاؤوهم] تفسير آيه ٨٣
٢٤٢	[عدم فائدة الإيمان بالله بعد مجيء بأس الله تعالى] تفسير آيه ٨٤
٢٤٤	[في جريان سنّة الله وعدم فائدة الإيمان بعد نزول البلاء] تفسير آيه ٨٥
٢٤٧	المصادر

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لِلَّهِ المؤمن المعين والصلوة والسلام على محمد وآله الطاهرين.
من أعظم الألفاف الإلهية على أن وجهت إليّ دعوة لتدريس تفسير للقرآن الكريم في برهة معينة في كلية الآداب بجامعة الرازي في كرمانشاه. وقد اغتنمت هذه الفرصة بجهات مختلفة، وشرعتُ في تفسير سورة المؤمن على بعض الطلاب الدارسين في الكلية المذكورة. وما أحسن هذه الدعوة دعوة الإقبال إلى القرآن الكريم الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الكتاب الذي هو مصدر السعادة، ومنبع الهداية، معين الأداب والأخلاق، وهداية ونور لتربية الفطرة الإنسانية وسوقها إلى الكمال الذي لاحد له. فدرّسنا السورة المباركة، وكتبنا تلك المحاضرات، فجاءت بحمد الله مجموعة لطيفة مقدمة إلى أهل الفضل والكمال، مستدعياً منهم القبول والدعاء وفي الختام أشكر الفاضل المحقق الشيخ ناصر الدين الأنصاري لإتمامه هذا الكتاب وسائر مؤلفاتي وفقه الله لمراضيه.

و نسأل الله تعالى العفو والتوفيق. والحمد لله أولاً وآخراً.

فضيلة السورة وثواب قراءتها

سورة المؤمن

وتسمى سورة «غافر» وسورة «الطول». والمروى عن ابن عباس وعطاء وعكرمة وجابر وابن الزبير ومسروق وسمرّة بن جندب أنها مكيّة. وحكى أبو حيان الإتفاق على ذلك.

وعن الحسن أنها مكيّة إلا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة وكانت الصلاة بمكة ركعتين من غير توقيت، ومن الواضح عدم اختصاص التسبيح بالمأمور به في الآية بالصلوة.

والحق قول الأكثرين، كما سيأتي. واختلفت الأقوال في عددها بين خمس وثمانين وأربع واثنتين وستّ وثمان وثمانين.

وأما فضيلة السورة المباركة وثواب قراءتها وتلاوتها، ففي تفسير البرهان [عن] ابن بابويه بإسناده عن أبي الصباح، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ حم المؤمن في كلّ ليلة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وألزمه كلمة التقوى وجعل الآخرة له خيراً من الدنيا».

ومن خواصّ القراءان، روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من قرأ هذه السورة لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة ويُعطى ما يُعطون الخائفون الذين خافوا الله في الدنيا، ومن كتبها وعلّقها في حائط أو بستان اخضرّ وما وإن كتبت وتركت في خانات أو دكان

كثر الخير فيه وكثر البيعُ والشراء».

وقال الصادق عليه السلام قال رسول الله ﷺ الصادق عليه السلام: من كتبها وعلّقها في بستانٍ اخضرّ ونما، وإن تركها في دكانٍ كثر معه البيع والشراء».

و في البرهان رواية أخرى طويلة فليراجع^١.

و في تفسير نورالثقلين، في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ حم المؤمن في كلّ ليلة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وألزمه كلمة التقوى، وجعل الآخرة خيراً له من الدنيا».

و بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الحواميم رياحين القرآن، فإذا قرأتموها فاحمدوا الله واشكروه كثيراً لحفظها وتلاوتها؛ فإنّ العبد ليقوم ويقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر. وأنّ الله عزّ وجلّ ليرحم تاليتها وقارئها ويرحم جيرانه وأصدقاءه، ومعارفه وكلّ حميم وقريب له. وأنّه في يوم القيامة يستغفر له العرش والكرسيّ، وملائكة الله المقربون».

في مجمع البيان [عن] أبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ سورة حم المؤمن لم يبق روح نبوّ، ولا صدّق، ولا مؤمن إلّا صلّوا عليه، واستغفروا له».

و روى أبو برزة الأسلمي عن رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم في صلاة اللّيل».

أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الحواميمُ تاج القرآن».

في تفسير عليّ بن إبراهيم [عن] الحسن، عن سيف بن عميرة، عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ الحواميم في ليلة قبل أن ينام كان في درجة محمّد وآل محمّد، وإبراهيم عليه السلام وآل إبراهيم، وكلّ قريب له أو بسبيل إليه. ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: الحواميم تأتي يوم القيامة أنثى من أحسن النّاس وجهاً وأطيبه، معها

ألف ألف ملك، مع كل ملك ألف ألف ملك حتى تقف بين يدي الله عز وجل فيقول لها الرب: من ذا الذي يقرؤك فيقضي قراءتك؟ فيقوم طائفة لا يحصيهم إلا الله، فيقول لهم: لعمرى لقد أحسنتم تلاوة الحواميم، فتمّ بها في حياتكم الدنيا، وعزّتي وجلالي لا تسألوني اليوم شيئاً كائنًا ما كان إلا أعطيتكم، ولو سألتهموني جميع جنّاتي أو جميع ما أعطيته عبادي الصالحين وأعدّته لهم فيسألونه جميع ما أرادوا وتمنّوا، ثم يؤمر بهم إلى منازلهم في الجنة، وقد أعدّ لهم فيها ما لم يخطر على بال ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت»^١.

المناسبة مع آخر الزمر

يناسب أوّل السورة المباركة مع آخر الزمر بأنّه تعالى لمّا ذكر سبحانه هناك ما يؤل إليه حال الكافر وحال المؤمن متأخراً عنه، وقريباً إلى مبتدأ هذه السورة المباركة، ذكر جلّ وعلا في أوّل هذه السورة أنّه تعالى غافر الذنب، وقابل التوب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان، والإقلاع عمّا هو فيه.

وهي السورة الأولى من الحاميمات السبعة المتتالية كلّ تلو الأخرى. ومشمّلة على مواضع اعتقاديّة ودينيّة مناسبة مع طبائع السور المكيّة. وتتابع آياتها واتّحاد مضامينها شاهدٌ على كونها كذلك كما أشرنا إليه، وذكرنا أنّ المتبع قول الأكثرين، بل الأجمعين من كونها مكيّة، ولا يعبأ بما قيل من أنّ فيها ما نزل بالمدينة.

مفاد السورة المباركة

والسورة المباركة مجموعة من القهر واللطف، والانذار والتبشير، ودحض باطل

أَقَاوِيلَ الْكَافِرِينَ بَوَّجُوهُ مِنَ الْحَجَجِ النَّاطِقَةِ بِتَوَحُّدِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَأَمَرَ النَّبِيَّ بِالصَّبْرِ وَوَعَدَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَرَدَّ اسْتِكْبَارَ الْكَافِرِينَ وَمَجَادَلَتَهُم بِالْبَاطِلِ؛ لِدَحْضِ الْحَقِّ الَّذِي يَدْعُونَ إِلَيْهِ؛ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ مَكْرَرًا فِي الْآيَاتِ.

[كَمَا فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ:] ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَإِ﴾.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ﴾.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَكْسِرُ سُورَةَ اسْتِكْبَارِ الْكَافِرِينَ وَجِدَالِهِمْ بِذِكْرِ مَا عَاقَبَ اللَّهُ بِهِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبِينَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ بِذِكْرِ طَرَفٍ مِمَّا يَجْرِي عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ السُّورَةِ قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ وَإِنْجَائِهِمْ مِنْ الْقَتْلِ. وَلَعَلَّ تَسْمِيَةَ السُّورَةِ بِمُؤْمِنٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، أَيْ تَعْلِيمِ مُؤْمِنِي مَكَّةَ بِسُلُوكِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، كَسُلُوكِ أَبِي طَالِبٍ مُؤْمِنٍ قَرِيشٍ عليه السلام.

وَيَشِيرُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ آيَةً مِنَ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَلَعَلَّ النِّقَاطَ الْهَامَّةَ الَّتِي تَتَرَكَّزُ عَلَيْهَا السُّورَةُ التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَتَهْدِيدُ الْكَافِرِينَ وَالْجَبَّارِينَ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ، وَقَضِيَّةُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَالنَّظَرُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَآيَاتُهُ، وَبَطْلَانُ الشِّرْكِ وَأَدْلَتُهُ، وَدَعْوَةُ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ.

المجادلة بالباطل لإدحاض الحق



وقد أخذها الكوفيون والشاميون آية واحدة وجعلها غيرهم جزء آية، وقال قوم: موضعه نصب بتقدير «أُتْلُ حم» أو «اقرأ حم». وقال آخرون: موضعه جرّ بالقسم، وقالوا بالرفع فيه خبراً للمتبدل المحذوف، أي هذه حم. وقد فتح الميم عليّ بن عيسى بن عمر جعلاً له اسماً للسورة غير منصرف وغير منون؛ لأنّه على وزن «قائيل وهابيل»، ويجوز كون الفتح لالتقاء الساكنين حيث سكّن القراء الميم. ومن جزم قال: لأنّها من حروف التهجي ولا يدخلها الإعراب. ويجمع على حاميمات وحواميم، واستشهد للأول بما أنشده فيه ابنُ عساكر في تاريخه:

هذا رسول الله في الخيرات جاء بياسين وحاميمات
و أمّا الثاني، فقد يزعم أنّه من تحريف الرواة الأعاجم. وليس من كلام العرب، وقد يحكى عن أبي منصور اللغوي «أنّ من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم، والصواب أن تقول: قرأت آل حم». و في حديث ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات دمنات

أتأتق فيهن». وعلى هذا قول الكميّ ابن زيد في الهاشميات:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

وينبغي أن يعلم أنّ آل في قولهم «آل حم» كما قال الخفاجي ليس بمعنى الأهل المشهور وهو الأهل بل هو لفظ يذكر قبل ما لا يصحّ تثنيته وجمعه من الأسماء المركّبة ونحوها، كتأبّط شراً، فإذا أرادوا تثنيته أو جمعه زادوا قبله لفظة «آل» أو «ذو»، فيقال: جاءني آل تأبّط شراً، أو ذواتا تأبّط شراً، أي الرّجلان أو الرّجال المسمّون بهذا الاسم. قال حم بمعنى الحواميم، وآل بمعنى ذو، والمراد به ما يطلق عليه ويستعمل فيه هذا اللفظ. ونحن نقبل هذا الكلام بالنسبة إلى الأسماء المركّبة، كتأبّط شراً. وأمّا مثل الحواميم، فلا نقبله، لوقوعه في كلام أفصح العرب وأبلغ من نطق بالضاد، وقد عرفت أنّهما رواه أبو برزة الأسلمي عن رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليقرأ الحواميم في صلاة اللّيل».

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ الحواميم في ليلة قبل أن ينام كان في درجة محمّد وآل محمّد وإبراهيم صلوات الله عليهما وآل إبراهيم».

وقد قال الصادق عليه السلام: «أعربوا أحاديثنا فإنّا قومٌ بلغاء». ومن الواضح أنّ المراد من كلمة «آل حم» في شعر الكميّ ابن زيد في الهاشميات «وجدنا لكم في آل حم» المعنى المشهور وهو الآل والأهل.

والمراد من «حم» هي السور الحواميم، التي في شأن المؤمنين الكاملين الذين مصاديقهم الأجلّ ومواردهم الأكمل هي أهل البيت المطهّرون الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرههم تطهيراً، وقد جعلت مودّتهم أجراً للرسالة والنبوّة، وقال الله تعالى مخاطباً لنبيّه الأكرم ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا. واختلفوا في معاني هذه الحروف في أوائل السور، وقالوا بأنّها اسم للسور،

واستشهدوا بقول شريح بن أوفى العبسي (العجلي):

يذكرني «حم» والريح شاهر
لوقوع «حم» فاعلاً ليذكرني.

وقال الكميّ بن زيد في الماشيئة:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منّا تقّي ومعزب

وحم في الشعر مضاف إليه، معرب غير منصرف، والاستشهاد لمكان وقوع حم معرباً في البيتين فليس بحرف. يريد بتلك الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^١

وقالوا: إنها من المتشابهات، ولا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم. أو أنها أسماء السور. أو إشارة إلى اسمي الحميد والمجيد. وفي معاني الأخبار بإسناده إلى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: «و أمّا حم فمعناه الحميد المجيد».^٢

وقيل: إنها اسم من الأسماء الإلهية، ومفتاح الخزائن السماوية.

وقالوا: بأنها مفتاح الأسماء الشريفة التي في أولها الحاء والميم، كالحليم والحميد والحامد والحكيم والحيّ والحنّان، والحفيظ والمجيد، والمالك والمليك، والمبدئ والمعيد، والمعزّ والمثّان. وقالوا بأنها اسم الله الأعظم. أو أنها إشارة إلى «حميت المحييين» أو «قضى ما هو كائن» وغير ذلك من الوجوه المختلفة التي بعضها استحسانات ظنيّة.

١. الثوري: ٢٣.

٢. نود الثقلين، ج ٤، ص ٥١٠.

أفي بيان نزول القرآن الكريم من عند الله

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

تنزيل الكتاب يمكن أن يكون مبتدأً، ومن الله العزيز العليم خبره. أو خبر مبتدإ محذوف. أي هو تنزيل الكتاب بتأويل هو الكتاب المنزل بإرجاع المصدر، أي التنزيل إلى الموصوف الذي يصلح أن يقع خبراً، ومسنداً وبالإضافة إلى المفعول، أي الكتاب. أو يكون خبراً لحم.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ إيماء إلى أنه من الله (جلّ جلاله) لامّا يقوله الكفار من أنه مخلوق أو متقول أو ممّا يجوز أن يكذب به.

وذكر الوصفين «العزيز العليم» لما في هذا الكتاب الجليل العظيم من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الأفهام ومقتضى إعجازه أن ينزل من العزيز العليم.

و «العزيز» هو القادر الذي لا يغالب ولا يقهر، المنيع بقدرته على غيره، ولا يقدر عليه غيره، و «العليم» الكثير العلوم، والصفة المشبهة من المتعدي للمبالغة، فمثل هذا الكتاب المنزل من العزيز العليم لا يكون فيه ضيق ومنع وجهل وعجز وقصور لأنّه نازل ممّن له القدرة التامة الغالبة والحكمة البالغة.

اغفران الذنوب من الله تعالى

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ
المَصِيرُ﴾

غافر الذنب وقابل التوب ترغيباً، وشديد العقاب ترهيباً.
التوب والتوب والأوب أخوات في معنى الرجوع، وهو مصدر أو جمع التوبة،
كدوم ودومة وعموم وعومة. والطول! الزيادة والفضل.

يقال: لفلان على فلان طول والإفضال، يقال: طال عليه وتطول: إذا تفضل.
غافر الذنب لأوليائه وأهل طاعته، والذنب اسم جنس، فالمعنى: غافر الذنوب
فيما مضى وفيما يستقبل ويستأنف. وقابل التوب. لمن تاب إليه من المعاصي.
والإتيان بصيغة اسم الفاعل للدلالة على الاستمرار التجديدي، فإنَّ المغفرة وقبول
التوب من صفات الله الفعلية وهو لم يزل يغفر الذنب، ثمَّ يغفر ويقبل التوب ثمَّ
يقبل. وفي الجمع بين غافر الذنب وقابل التوب نكتة جليلة وهو الجمع بين رحمتين
للمذنب التائب قبول توبته، وجعلها محادثة للذنوب، كالجمع بين المغفرة والقبول،
ولكنَّه يعقَّب بقوله (تعالى): ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لئلاَّ يعوِّل على العفو، بل يخاف عقابه؛
لأنَّه شديد العقاب، ويرجو ثوابه؛ لأنَّه غافر الذَّنْبِ، فيكون العبد بين الخوف والرجاء

كما يشير إليه القرآن الكريم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

والعقاب يختصّ بالعذاب دون العقابة فإنّها تستعمل في موارد الثواب، كالعاقبة للمتقين، وتستعمل في العقوبة، نحو ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾، وربما يستشكل بكون شديد العقاب نكرة ولا يحسن وقوعها صفة للمعرفة، كما تقول: مررت برجلٍ شديد القلب والشديد هذا صفة للنكرة. والمجوز لذلك أنّ الصّفة وإن كانت نكرة إلّا أنّها مذكورة في سياق المعارف ولذا حسن ذكرها كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ؛ لأنّ فعّال نكرة محضة.

ومثله قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾^١ فرفيع نكرة. وذى الطّول أي ذي النعم، كما عن ابن عباس وقتادة، أو ذي القدرة كما عن ابن زيد والسّدي. أو ذي التفضّل على المؤمنين، عن الحسن وقتادة.

أو كون معناه، الإنعام الذي تطوّل مدّته على صاحبه، فيقال: اللهمّ طلّ علينا أي أنعم. ﴿وَاللَّهُ هُوَ ذُو الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو معبود حقيقة ولا يستحقّ العبادة غيره تعالى، وإليه المصير، وتوّل الأمور إليه حيث لا يملك أحد الأمر والنهي والضّر والنفع غيره تعالى في يوم القيامة. والمعاني المذكورة للطول متقاربة، واللّه هو الغنيّ ذاتاً وصفةً وفعلاً، وجميع التفضّلات والكمالات منه جلّ شأنه من الإيمان والعلم والمال والثروة والقدرة والتقوى والتوفيق والأعمال الصالحة والطاعة والسعادة والجنّة فالكلّ بإفاضته تعالى وهو يعطي من يشاء. ولهذا عبّ كلمة ذي الطّول بلا إله إلّا الله، وإليه المصير، ليعلم العبد أنّ السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتباعه وهو الإيمان بالله تعالى، والاعتقاد بأنّ المصير إليه، والاعتقاد بيوم الحساب

يستتبع الخوف والرجاء خوفَ العقاب ورجاء الثواب.

ثمّ لما أشار الآية الكريمة أنّ القرآن منزل من الله العزيز العليم، وهو كتاب مبين للدين الذي هو مفطور في الإنسان ويصلح باتباعه دنيا العبد وآخرته. ومثل هذا الكتاب لا يشوبه جهل، ولا يدحضه باطل، فلا ينبغي أن يجادل فيه أحد، فقال سبحانه.

التبينة على محاولة الكفار للمجادلة في آيات الله

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾

الجدال شدة اللدد في الخصومة، والمجادلة الاحتجاج واللجاج والخاصمة والمدافعة، ولعلّ الظهور العرفي للكلمة اللجاج في قبال الحق.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جدالاً بالباطل، طعناً في الآيات، إحاضاً للحق، وإطفاءً لنور الله عز وجل كما يشهد على هذا الجدال الممقوت قوله تعالى بعد: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^١ وبمقتضى النفي والإثبات فى الآية الشريفة لا يخاصم في دفع حجج الله وإنكارها، وجدها إلا الذين يجحدون نعم الله، ويكفرون بأياته وأدلتها، وإلا فالجدال والمخاصمة لا يوضح الحق وتقريره وحلّ المشكل والمعضل، واستنباط معاني القرآن، وكشف ملتبسه، وردّ الزيغ وأهله عن آيات الله، جدال محمود، ومخاصمة محمودة، وجهاد عظيم في سبيل الله، وقد قال الله تعالى للرسول الأعظم ﷺ ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٢

١. المؤمن: ٤٠.

٢. النحل: ١٢٥.

والجدال في آيات الله من الكافر تارةً بأنه يقول: إنه سحر، ومرةً؛ إنه شعر، ومرةً إنه قول الكهنة أو أساطير الأولين، أو تعليم من البشر، أو أشباه ذلك من سخيف المقال.

وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ولا إشكال في أن إحضار الحق القرآني، وإطفاء نور الله كفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله، فلا يعابُ بذهابهِ وإيابه في بلاد الله مختلاً فخوراً، فلا يغرك يا رسول الله ﷺ سلامتهم وإمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد برحلة الشتاء والصيف، وبالتجارات النافعة والمكاسب المربحة، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاء الأبدي. فلا يحسب في حقهم أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا وتصرفوا في البلاد، ولم يعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم؛ لأنهم على شيء من الحق. فإنما نمهلهم لذلك ولكن ليبلغ الكتاب أجله ولتحقق عليهم كلمة العذاب.

و في تفسير نورالثقلين: في كتاب كمال الدين وتعمام النعمة بإسناده إلى عبدالرحمان بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لعن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبياً، ومن جادل في آيات الله فقد كفر، قال الله عز وجل: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ الحديث.

ثم يشير الله جلّ جلاله إلى حال الأمم السابقة والأحزاب السالفة المتحزبة على أنبيائهم بتمثيل حال الكفار المعاندين للرسول وبتلك الأمم في تكذيبهم، وعداوتهم للرسول، وجدالهم بالباطل، وما أذخر لهم من سوء العاقبة، وشدة العقاب.

و في هذه تسليية من الله جلّ شأنه رسوله الكريم بالأسوة السالفة من الأنبياء، وحلول نقمة الله على تلك الأمم بعد بلوغ أمدهم. وهذه سنة الله في أمثالهم المكذّبين، فقال سبحانه.

[تكذيب الأنبياء وعاقبته]

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم. أى الأمم المستمرة على الكفر، والمتحزبة على أنبيائها بالتكذيب. قال تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾^١

و لم يكتف تلك الأحزاب على التكذيب والإنكار، بل ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ الْأَحْزَابِ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُمْ﴾ هم به أى قصده ويغلب فيه القصد بالسوء، أى قصدوا رسولهم لياخذوه بالتمكن منه والإيقاع به، يقال للأسير أخيد أى مأخوذ، وهمت تلك الأمم برسولهم بتكذيبهم وحسبهم وتعذيبهم وقتلهم. وإنما قال الله تعالى برسولهم لأنه أراد الرجال من تلك الأمم وهم أهل المكيدة والتعذيب والقتل غالباً أو تغليياً على نساءهم.

و في قراءة عبدالله «برسولها». ولم يكتفوا أيضاً على التكذيب والتعذيب، بل وجادلوا الرسل بالباطل، وإيراد الشبهات، ودفع الحقّ بباطل من القول ليدحضوا به الحقّ أى ليبطلوا ويزيلوا الحقّ الذى بيّنه الله وأظهره، يقال: أدحض الله حُجَّتَه، أى أزالها. وقال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^١ أى زائلة. وفى الدّر المنثور: أخرج الطبرانى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أعانَ باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمّة الله وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم فأخذتُهم بسوء أعمالهم وأهلكتم ودمّرت عليهم وأنزلتُ بهم من العقاب والدمار والهلاك جزاءً لهممهم بأخذ الرسل وتعذيبهم.

و في الالتفات من الغيبة إلى التكلّم وحده إشارة إلى أنّ أمرهم في الطغيان والاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه وبينهم أحدٌ بنصرةٍ أو شفاعَةٍ، وفى هذه النسبة ما لا يخفى من التهديد العظيم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام تقريرى لتوجيه ذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم وقطع دابرهم ليخضّر شدة ما نزل بهم. قال قتادة: شديد والله. وبعد هذا التهديد الشديد من الله العزيز يقول جلّ جلاله.

[حكم الله تعالى لكفار بالنار]

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

و كذلك حَقَّتْ كلمة رَبِّكَ على الَّذِينَ كفروا بإهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل و إهلاكهم في الآخرة بالخذلان وعذاب النار. فَإِنَّ الكَفَّار يعاقبون في الآخرة بالنار كما عوقبوا في الدنيا بعذاب الإستئصال إِلَّا أَنَّهُمْ في الآخرة أصحاب النار أي ملازمون لها، والصحبة المقارنة المداومة.

و لا يخفى لطف إضافة كلمة الرب إلى ضمير الخطاب الراجع إلى الرسول الكريم من العناية الربانية التامة بالنسبة إليه ﷺ وتطبيب نفسه المقدسة ﷺ بأن الركن الذي يركن إليه هو الشَّديد القويّ.

و ظهور جملة إتهام أصحاب النار في التعليل، أي لأنهم أصحاب النار، ويستحقّون لهذا الخذلان بسوء سلوكهم.

و في تفسير نورالثقلين: وفي تفسير علي بن إبراهيم، حدَّثنا مُحَمَّد بن عبد الله الحميري عن أبيه، عن مُحَمَّد بن الحسين ومُحَمَّد بن عبد الجبار، جميعاً عن مُحَمَّد بن سنان، عن المنخل بن خليل الرقي، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني بني أمية.

ثمّ يلتفت الكلام الإلهي إلى تسليّة الفرق المؤمنين وتبشيرهم بحسن عاقبتهم، ودعاء الملائكة الحاملين العرش ومن حوله لهم.

و لا يخفى لطف اتّصال هذا التبشير بما سبق من وعيد النار والعذاب للمكذّبين، والمجادلين في آيات الله بالباطل، والداخضين للحقّ، ومن حقّ عليه كلمة العذاب، وهم الممقوتون المعذبون الكافرون بتوحيد الله، وهذا الإنذار الشّديد ربّما يوجب خوف المؤمنين وقلقهم قبال عفو الله تعالى والتوبة عليهم، واتّصال تسبيح ملائكة الرحمان الحاملين للعرش ومن حوله، واستغفارهم للذين آمنوا مبشراً بالآخوف عليهم ولاهم يحزنون، فقال سبحانه:

[الحاملون للعرش الله وذكرهم]

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

حملة العرش ومن حوله الملائكة الذين يحملون العرش الذي منه تظهر الأوامر، وتصدر الأحكام الإلهية التي بها يدبر العالم. والذين حول العرش من الملائكة المقربين، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾^١ وهم الكروبيون، و سادة الملائكة وأشرفها المنزهون ربهم عما يصفه به هؤلاء المجادلون، ونشير في آخر تفسير الآية إلى كلمة في العرش.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يسبحون الله بالحمد، ويشنون عليه على فعله وتدييره، وينزهونه سبحانه عن كل ما يليق بساحة قدسه، كوجود الشريك في ملكه. والتسبيح إشارة إلى الجلال، والتحميد إلى الإكرام، وَ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً بوحديته في ربوبيته وألوهيته، وينزهونه عن كل نقص، ويحمدونه على أفعاله غير مستكبرين عن عبادته. وفي هذا إشارة إلى شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه، وشرف من تحلّى به، وردّ للمشركين حيث يعدّون الملائكة المقرّبين شركاء لله في ربوبيته وألوهيته، ويتخذونهم أرباباً يعبدونهم. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ ويسألون المغفرة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والملائكة معصومون، والله تعالى لا يردّ دعاءهم واستغفارهم. وهذا شرف للمؤمنين حيث جعل استغفار الملائكة لهم معطوفاً على إيمان للملائكة، وتنزيههم لله تعالى.

و في الكشف تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة، وأنبعثه على إحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس، وتباعدت الأماكن، فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماوي وأرضي قطّ.

ثم لما جاء جامع الإيمان جامع التجانس الكلّي، والتناسب الحقيقي حتّى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض، ودعائهم للمؤمنين.

﴿رَبَّنَا﴾ نادى مضاف بتقدير يقولون ربّنا وحذف؛ لأنّه مفهوم ومعلوم من الكلام. ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ نصّبها على التّمييز، ومعناه وسعت رحمتك وعلمك كلّ شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾^١ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^٢ فنقل الفعل إلى الموصوف على وجه المبالغة، كما قالوا: طبّت به نفساً، بإسناد الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم للإغراق، كأنّ ذاته رحمة وعلم واسعاً كلّ شيء.

وهذا مبتدأ دعائهم واستغفارهم بادئين بالثناء عليه تعالى بسعه الرحمة والعلم؛ لأنّه برحمته ينعم على كلّ محتاج، فالرحمة مبدأ إفاضة كلّ نعمة، وبعلمه يعلم

١. الأعراف: ١٥٥.

٢. الطلاق: ١٢.

حاجة كل محتاج مستعد للرحمة.

و في هذا تعليم وأدب بطريقة الدعاء، فإن السعادة مرهونة بالتعظيم لأمر الله، والشفقة على خير خلق الله المستحقين لها والتعظيم لأمر الله مقدم على الشفقة على خلق الله فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ مشعر بالتعظيم لأمر الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مشعر بالشفقة على خلق الله، ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فاعفر للذين رجعوا إليك بالإيمان بوحدانيتك واتبعوا سبيلك الذي شرعت لهم من الدين، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وطبقوا جميع شؤونهم وعملهم عليه ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وهو غاية المغفرة وغرضها.

قال في مجمع البيان:

في هذه الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى؛ إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعل الله سبحانه لأمالة.
وما أحسن وأجاد كلام العلامة الطباطبائي في الميزان، ولا بأس بنقله بتمامه وطوله في المقام فقال ﷺ:

و فيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسألته وطلبه منه تعالى، كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها، وعده تعالى واجب الإنجاز، فإنه لا يخلف الميعاد. وأصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^١ وقبول التوبة على الله ﷻ للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك

يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^١. فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه، كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوعٌ إليه لاستنجاز ما وعده، وإظهار اشتياق للفوز بكرامته. وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفضل جائز الصدور غير واجبة، فكل عطية من عطايها تفضل، سواء كانت واجبة الصدر أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه، وقهره عليه؛ إذ هو المؤثر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره، بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه، ويؤول معناه إلى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم، فيكون سبحانه إنما يفعل بمشيئة من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه تفضلاً به، فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور. وأما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلاً أوضح^٢

و في تفسير مقتنيات الدرر:

في العيون عن الرضا عليه السلام في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بولايتنا. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةَ يُسْقِطُونَ الذُّنُوبَ عَنْ ظُهُورِ شِيعَتِنَا كَمَا يُسْقِطُ الرِّيحُ الْوَرَقَ أَوْ أَنْ سَقُوطُهُ، ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ يعني رسول الله والأوصياء من بعده يحملون علم الله، ومن حوله يعني الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، أي لشيعه آل محمد.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ثَابُوهَا﴾ أي للذين من ولاية غيرهم مثل بني أمية. ﴿وَأَتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يعني ولاية ولي الله ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾، يعني من تولّى عليّاً، وذلك صلاحهم ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لمن نجاه الله عن ولاية غير عليّ وأولاده المعصومين.

١. النساء: ١٧.

٢. الميزان، ج ١٧، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

و في الكافي مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعْطَى التَّائِبِينَ ثَلَاثَ خَصَالٍ لَوْ أُعْطِيَ خَصْلَةٌ مِنْهَا جَمِيعٌ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَجَّوْا بِهَا». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، انْتَهَى الْحَدِيثُ.^١

و في تفسير نورالثقلين: في روضة الكافي: عَدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلِيمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَصِيرٍ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يُسْقِطُونَ الذُّنُوبَ عَنْ ظُهُورِ شِيعَتِنَا، كَمَا يَسْقِطُ الرِّيحُ الْوَرَقَ أَوْ أَنْ سَقُوطُهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ استغفارهم والله لكم دون هذا الخلق» والحديث طويل.

محمد بن أحمد عن عبد الله بن الصلت، عن يونس، عن عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ ذَكَرَهُ مَلَائِكَةً يُسْقِطُونَ الذُّنُوبَ عَنْ ظُهُورِ شِيعَتِنَا، كَمَا تُسْقِطُ الرِّيحُ الْوَرَقَ مِنَ الشَّجَرِ أَوْ أَنْ سَقُوطُهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَاللَّهُ مَا أَرَادَ غَيْرَكُمْ».

فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الرِّضَا، عَنْ عَلِيِّ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حَدِيثٌ طَوِيلٌ، وَفِيهِ يَقُولُ عليه السلام: «وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَخَدَّامُنَا وَخِدَّامُ مُحِبِّينَا يَا عَلِيُّ ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بَوْلَايَتِنَا». فِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ الْمَنْقَرِيِّ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: الْمَلَائِكَةُ أَكْثَرُ أَمْ بَنُوَادِمُ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَلَائِكَةُ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ التُّرَابِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعٌ قَدَمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلِكٌ يَسْبَحُهُ وَيَقْدِّسُهُ، وَلَا فِي الْأَرْضِ

شجرة ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها. والله اعلم بها، وما منهم أحد إلا ويتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت، ويستغفر لمحبتنا، ويلعن أعداءنا، ويسأل الله عز وجل أن يرسل عليهم العذاب إرسالاً».

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، يعني رسول الله ﷺ والأوصياء من بعده، يحملون علم الله ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني شيعة آل محمد ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من ولاية فلان وفلان وبني أمية ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي ولاية ولي الله ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿الْحَكِيمِ﴾ يعني من تولى علياً عليه السلام فذلك صلاحهم ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾، يعني يوم القيامة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لمن نجاه الله من هؤلاء، يعني ولاية فلان وفلان وفلان.

في أصول الكافي: علي بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، رفعه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السموات والأرض لنجوا بها. قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

والحديث طويل.

و في تفسير كنز الدقائق: في تفسير فوات بن أبراهيم الكوفي، قال:

حدّثني جعفر بن محمد الفزاري، قال: حدّثني أحمد بن الحسين بن محمد بن

حاتم عن هارون بن الجهم، عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾. يعني محمداً وعلياً والحسن والحسين وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى صلوات الله عليهم»^١.

ولكن في تفسير البرهان تبديل اسم إسماعيل بنوح عليه السلام^٢

وفي تفسير نورالثقلين، في تفسير فوات بن إبراهيم الكوفي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن عبيد، قال: حدثنا الحسن بن جعفر، قال: حدثنا الحسين بن جعفر، قال: حدثنا الحسين الشوا، قال: حدثنا محمد، يعني ابن عبد الله الحنظلي، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا سليمان الأعمش، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام جعفر بن محمد وقلتُ له: - جعلت فداك - إنَّ الناس يسمُّونا: روافض، فما الروافض؟ فقال: «والله ما هم سمَّوكموه، ولكنَّ سمَّاكم به في التوراة و الإنجيل على لسان موسى ولسان عيسى، وذلك أنَّ سبعين رجلاً من قوم فرعون رفضوا دين فرعون فدخلوا في دين موسى، فسماهم الله تعالى الرافضة. وأوحى إلى موسى: أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة حتى يملكونه على لسان محمد، ففرَّقه الله فرقا كثيرة، وتشعبوا شعباً كثيرة، فرفضوا الخير فرفضتم الشرَّ، واستقمتم مع أهل بيت نبيكم عليهم السلام فذهب نبيكم، واخترتم من اختار الله ورسوله، فأبشروا ثمَّ أبشروا، فأنتم المرحومون، المتقبل من محسنهم والمتجاوز عن مسيئهم، ومن لم يلق الله بمثل ما لقيتم، لم تُقبل حسنة ولم يُتجاوز عن سيئة، يا سليمان هل سررتك؟» فقلت: زدني جعلت فداك، فقال: «إنَّ لله عزَّ وجلَّ ملائكةً يستغفرون لكم حتَّى تتساقط ذنوبكم، كما يتساقط ورق الشجر في يوم الرِّيح، وذلك قول الله، تعالى، ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم

١. كتر الدقائق، ج ١١، ص ٣٥٧.

٢. البرهان، ج ٤، ص ٩١.

شيعتنا، وهي والله لهم، يا سليمان هل سررتك؟». فقلت: جعلت فداك زدني. قال ﷺ: «ما هي على ملة إبراهيم إلا نحن وشيعتنا وسائر الناس منها بُرّاء».

وفي شرح الآيات الباهرة: قال محمد بن العباس: حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد بإسناد يرفعه إلى الأصبع بن نباتة قال: إن علياً عليه السلام: «قال: إن رسول الله ﷺ أنزل عليه فضلي من السماء وهي هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما في الأرض يومئذ مؤمن غير رسول الله وأنا. وهو قوله: عليه السلام: لقد استغفرت لي الملائكة قبل جميع الناس من أمة محمد ﷺ بسبع سنين وثمانية أشهر»^١.

ومن الطريف ما في الدر المنثور للسيوطي: أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة عليه السلام قال: إن الملائكة الذين يحملون العرش يتكلمون بالفارسية^٢. وقال الآكوسي في روح المعاني: أي إذا تكلموا بغير التسبيح وإلا فالظاهر أنهم يسبحون بالعربية^٣.

وينبغي لنا الآن أن نتعرض لمعنى العرش الواردة في الآيات والروايات. قال الراغب في المفردات: العرش في الأصل شيء مسقف، وجمعه عروش، قال: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرْوَتِهَا﴾ ومنه قيل: عرشت الكرم وعرشتها إذا جعلت له كهيئة سقف. قال: والعرش شبه الهودج للمرأة تشبيهاً في الهيئة بعرش الكرم، وعرشت البئر جعلت له عريشاً، وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه قال: وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وليس كما يذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ

١. كزالدقائق، ج ١١، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٢. الدر المنثور، ج ٥، ص ٣٤٧.

٣. روح المعاني، ج ٢٤، ص ٤١.

يُسَبِّحُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ الْفَلَكُ الْأَعْلَى وَالْكَرْسِيُّ فَلكِ الْكَوَاكِبِ، واستدلّ بما روى عن رسول الله ﷺ ما السموات السبع والأرضون السبع في جنب الكرسيّ إلّا كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاة، والكرسي عند العرش كذلك». انتهى.

وقال الصّدوق في العقائد: اعتقدنا في العرش أنّه جملة جميع الخلق والعرش في وجه آخر هو العلم.^١

و قال الشيخ المفيد رحمه الله: العرش في اللغة هو الملك. قال:

إذا ما بنوا مروان ثلّت عروشهم و أودت كما أودت أينادوحمير يريد: إذا ما بنوا مروان هلك ملكهم وبادوا. وقال آخر: أظننت عرشك لا يزول ولا يتغير؟ يعني أظننت ملكك لا يزول ولا يتغير؟. وقال الله تعالى مخبراً عن واصف ملك ملكة سبأ ﴿وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يريد ولها ملك عظيم، فعرش الله تعالى هو ملكه، واستواؤه على العرش هو استيلاؤه على الملك، والعرب تصف الاستيلاء بالاستواء. قال:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق
يريد به: قد استولى على العراق.

وينبغي نقل بعض الروايات الواردة في الباب حتى تصف الإنسان على حقيقة العرش والكرسي، وننقل تبعاً للعلامتين المجلسي والطباطبائي (قدّس سرهما) اكتفاءً بما أفاده.

وفي بحار الأنوار سن: ابن فضال، عن محمد بن فضيل، عن ابن أبي حمزة، قال: أبو عبد الله عليه السلام: «شيعتنا أقرب الخلق من عرش الله يوم القيامة بعدنا».^٢

١. بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٧.

٢. المصدر، ج ٧، ص ١٨٥، ح ٤٠.

يد: أبي عليّ، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فقال: «السماءات والأرض وما بينهما في الكرسي. والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحدٌ قدره»^١.

وفي الحديث الشريف: «ليس العرش كما تظنّ كهيئة السرير، ولكنه شيء محدود مخلوق مدبّر، وربك عز وجل مالكة، لا أنّه عليه ككون الشيء على الشيء»^٢. الخ.

وفي الكافي في سؤال الجاثليق عن الأمير سلام الله عليه (في جوابه عليه السلام): «فالدّين يحملون العرش هم العلماء الذين حملهم الله علمه»^٣.

وفي الكافي في أسئلة أبي قرة المحدث عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال أبو قرة: فإنه قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ وقال: «الذين يحملون العرش» فقال أبو الحسن عليه السلام: العرش ليس هو الله، والعرش اسم علم وقدره وعرش فيه كلّ شيء، ثمّ أضاف الحمل إلى غيره خلق من خلقه؛ لأنّه استعبد خلقه بحمل عرشه وهم حملة علمه، وخلقاً يسبحون حول عرشه وهم يعملون بعلمه، وملائكة يكتبون أعمال عباده، واستعبد أهل الأرض بالطواف حول بيته، والله على العرش استوى، كما قال: والعرش ومن يحمله ومن حول العرش، والله الحامل لهم، الحافظ لهم، الممسك القائم على كلّ نفس، وفوق كلّ شيء وعلى كلّ شيء.

وفي البحار:

عن عليّ بن أحمد الدقاق، عن محمد بن جعفر الأسدي، عن محمد بن إسماعيل

١. المصدر، ج ٤، ص ٨٩، ح ٢٨.

٢. المصدر، ج ٣، ص ٣٣٣، ص ٤٢.

٣. المصدر، ج ٥٨، ص ١٠، ح ٨.

البرمكي، عن الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن حنّان بن سدير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش والكرسي، فقال: «إِنَّ للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كلّ سبب وصنع في القرآن صفة على حدة، فقلوه: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يقول: الملك العظيم، وقوله: ﴿الرَّخْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾ يقول: على الملك احتوى، وهذا ملك الكيفيّة في الأشياء، ثمّ العرش في الوصل مفرد من الكرسي؛ لأنّهما بابان من أكبر أبواب الغيوب. وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان؛ لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع، ومنها الأشياء كلّها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف، والكون، والقدرة، والحدّ، والأين، والمشية، وصفة الإرادة، وعلم الألفاظ، والحركات، والترك، وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأنّ ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي. فمن ذلك قال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أي صفته أعظم من صفة الكرسي. وهما في ذلك مقرونان»، قلت: جعلت فداك، فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال عليه السلام: «إنّه صار جاره؛ لأنّ علم الكيفيّة فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء، وأينيتها، وحدّرتّها وفتّقها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الظرف. وبمثل صرّف العلماء، وليستدلّوا على صدق دعواهما؛ لأنّه يختصّ برحمته من يشاء وهو القويّ العزيز.

فمن اختلاف صفة العرش أنّه قال تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ ربّ الوحدانيّة عمّا يصفون، وقوم وصفوه باليدين، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقوم وصفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمناها ارتقى إلى السماء، ووصفوه بالأنامل، فقالوا: إنّ محمّداً عليه السلام قال: «إني وجدت برد أنامله على قلبي» فلمثل هذه الصفات قال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول: ربّ المثل الأعلى عمّا به مثّله ولله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم، فذلك المثل الأعلى. ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم، فوصفوه ربهم بأدنى الأمثال، وشبهوه

بالمتشابه منهم فيما جعلوه به، فلذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١ فليس له شبه ولا مثل ولا عدل، وله الأسماء الحسنی التي لا یسمی به غیره، وهی التي وصفها فی الكتاب فقال: ﴿فَإِذْ غَوَّهٖ بِهَا وَذَرَوْا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ جهلاً بغير علم، فالذي يلحد في أسمائه جهلاً بغير علم يشرك وهو لا يعلم، ويكفر به وهو یظن أنه یحسن، فلذلك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم، فيضعونها غير مواضعها.

يا حنان، إن الله تبارك وتعالى أمر أن يتخذ قوم أولياء، فهم الذين أعطاهم الفضل وخصهم بما لم يخص به غيرهم، فأرسل محمد ﷺ فكان الدليل على الله بإذن الله عز وجل حتى مضى دليلاً هادياً، فقام من بعده وصيه ﷺ دليلاً هادياً على ما كان هو دل عليه من أمر ربه من ظاهر علمه ثم، الأئمة الراشدون ﷺ^١.

بيان العلامة المجلسي في العرض والكرسي

ونقل هنا بيان العلامة المجلسي بطوله في باب العرش والكرسي وحملتهما في

البحار:

بيان، «صفات كثيرة»، أي معان شتى وإطلاقات مختلفة. «ملك الكيفيّة في الأشياء» أي كميّة ارتباطه سبحانه بملخوقاته وتدبيره لها، وعلمه بها، ومباينته عنها، ولذا وصف ذلك بالاستواء، فليس بشيء أقرب من شيء، ورحمته وعلمه وسعاً كل شيء، ويحتمل أن يكون المراد تدبير صفات الأشياء وكيفياتها وأوضاعها وأحوالها، ولعله أظهر. «ثم العرش في الوصل مفرد» أي إذا عطف أحدهما على الآخر ووصل بينهما في الذكر، فالعرش مفرد عن الكرسي، ومباين له، وفي غير ذلك قد يطلقان على معنى واحد

كالعلم. «و هما جمعاً غيبان» أي مغيبان عن الحواش. قوله ﷺ «لأن الكرسي هو الباب الظاهر» يظهر منه مع غاية غموضه أن المراد بالكرسي والعرش هنا نوعان من علمه سبحانه، فالكرسي العلم المتعلق بأعيان الموجودات، ومنه يطلع ويظهر جميع الموجودات بحقائقها وأعيانها، والأمور البديعة في السماوات والأرض وما بينهما، والعرش العلم المتعلق بكيفيات الأشياء ومقاديرها وأحوالها وبدؤها وعودها، ويمكن أن يكون أحدهما عبارة عن كتاب المحو والإثبات، والآخر عن اللوح المحفوظ، قوله ﷺ: «لأن علم الكيفيّة» أي أنّهما إنّما صارا جارين مقرونين، لأن أحدهما عبارة عن العلم المتعلق بالأعيان والآخر عن العلم المتعلق بكيفيات تلك الأعيان، فهما مقرونان، ومن تلك الجهة صحّ جعل كلّ منها ظرفاً للآخر؛ لأنّ الأعيان لما كانت محالّ للكيفيّات فهي ظروفها وأوسع منها، ولما كانت الكيفيّات محيطّة بالأعيان فكأنّها ظرفها وأوسع منها، وبهذا الوجه يمكن الجمع بين الأخبار، ولقله أشير إلى هذا بقوله: «أحدهما حمل صاحبه في الظرف» بالظاء المعجمة أي بحسب الظرفيّة، وفي بعض النسخ بالمهملّة، أي حيث ينتهي طرف أحدهما بصاحبه إذا قرئ بالتحريك، وإذا قرئ بالسكون فالمراد نظر القلب. «و يمثل صرّف العلماء» أي علماء أهل البيت ﷺ عبّروا عن هذه الأمور بالعبارات المتصرّفة المتنوّعة على سبيل التمثيل والتشبيه فتارة عبّروا عن العلم بالعرش، وتارة بالكرسيّ، وتارة جعلوا العرش وعاء الكرسيّ. وتارة بالعكس، وتارة أرادوا بالعرش والكرسي الجسمين القطمين، وإنّما عبّروا بالتمثيل ليستدلّوا على صدق دعواهما. أي دعواهم لهما، وما ينسبون إليهما، ويبيّنون من غرائبهما وأسرارهما. وفي أكثر النسخ «و ليستدلّوا» فهو عطف على مقدّر، أي لتفهيم أصناف الخلق، وليستدلّوا، ولعلّ الأظهر «دعواهم».

قوله ﷺ: «فمن اختلاف صفات العرش» أي معانيه، قال في سورة الأنبياء ﴿قَسْبُحَانَ أَلِلّٰهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فالمراد بالعرش هنا عرش الوحدانيّة، إذ هي أنسب

بمقام التنزيه عن الشريك إذا المذكور قبل ذلك ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿وقال سبحانه في سورة الزخرف، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿والمناسب هنا عرش القدس والتنزيه عن الأشباه والأمثال والأولاد، فالعرش في كُلِّ مقام يراد به معنى يعلمه الراسخون في العلم. ثم إنه ظاهر الكلام يوهم أن الظرف في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ متعلق بالعرش وهو بعيد، بل الظاهر تعلقه بسبحان، وعلى ما قررنا عرفت أنه لا حاجة ارتكاب ذلك. ويدل الخبر على أن خطاب «وما أوتيتم» متوجه إلى السائلين عن الروح وأضرابهم لا إلى النبي ﷺ قوله ﷺ «من ظاهر علمه» إنما خص بالظاهر لأن باطن علمه لا يطيقه سائر الخلق سوى أوصياءه ﷺ.

واعلم أن هذا الخبر من المتشابهات، وغوامض المخبيات، والظاهر أنه وقع من الرواة والتساخ، لعدم فهمهم معناه تصحيفات وتحريفات أيضاً، فلذا أجملت الكلام فيه، وما ذكرته إنما هو على سبيل الاحتمال، والله يعلم وحججه حقائق كلامهم ﷺ.^١

بيان العلامة الطباطبائي في الميزان

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان:

قد استقرت العادة منذ القديم أن يختص العظماء من ولاة الناس وحكامهم ومصادر أمورهم من المجلس بما يختص بهم ويتميزون به عن غيرهم، كاللباس والتمكأ حتى آل الأمر إلى إيجاد السرر والتخوت، فأتخذ للملك ما يسمى عرشاً وهو أعظم وأرفع وأخص بالملك، والكرسي يعمه وغيره، واستدعى التداول والتلازم أن يعرف الملك

بالعرش كما كان العرش يعرف بالملك في أول الأمر، فصار العرش حاملاً لمعنى الملك ممثلاً لمقام السلطنة إليه يرجع وينتهي، وفيه تتوحد أزمة المملكة في تدبير أمورها وإدارة شؤونها.

واعتبر لاستيضاح ذلك مملكة من الممالك قطنت فيها أمة من الأمم لعوامل طبيعية أو اقتصادية أو سياسية استقلوا بذلك في أمرهم، وتميزوا عن غيرهم فأوجدوا مجتمعاً من المجتمعات الإنسانية، واختلطوا وامتزجوا بالأعمال ونتائجها، ثم اقتسموا في التمتع بالنتائج فاختص كل شيء منها على قدر زنته الاجتماعية، كان من الواجب أن تحفظ هذه الوحدة والاتصال المتكوّن بالاجتماع بمن يقوم عليها، فإن التجربة القطعية أوضحت للإنسان أن العوامل المختلفة والأعمال والإرادات المتشعبة إذا وجهت نحو غرض واحد وسيرت في مسير واحد لم تدم على نعت الاتحاد والملاءمة إلا أن تجمع أزمة الأمور المختلفة في زمام واحد وتوضع في يد من يحفظه، ويدبر حياته بالتدبير الحسن فتحيا به الجميع وإلا فسرعان ما تتلاشى وتشتت.

ولذلك نرى أن المجتمع المترقي يتوحد الأعمال الجزئية نوعاً نوعاً ثم يقدم زمام كل نوع إلى كرسي من الكراسي، كالدوائر والمصالح الجزئية المحلية. ثم يتوحد أزمة الكراسي فيعطي كل نوع كرسيّاً فوق ذلك، وعلى هذا القياس حتى ينتهي الأمر إلى زمام واحد يقدم إلى العرش، ويهدى لصاحب العرش.

ومن عجيب أمر هذا الزمام وانبساطه وسعته في عين وحدته أن الأمر الواحد الصادر من هذا المقام يسير في منازل الكراسي التابعة له على كثرتها واختلاف مراتبها، فيتشكّل في كل منزل بشكل يلائمه، ويعرف فيه، ويتصوّر لصاحبه بصورة ينفع بها ويأخذها ملاكاً لعمله.

يقول: مصدر الأمر: «ليجر الأمر» فتأخذ المصالح المالية تكليفاً مالياً ومصالح السياسة تكليفاً سياسياً، ومصالح الجيش تكليفاً دفاعياً وعلى هذا القياس كلما صعد أو نزل،

فجميع تفاصيل الأعمال والإرادات والأحكام المجراة فيها المنبسطة في المملكة وهي لا تحصى كثرة أو لاتناهى لاتزال تتوحد وتجتمع في الكرسي حتى تنتهي إلى العرش فتتراكم عنده بعضها على بعض، وتندمج وتتداخل وتتوحد حتى تصير واحداً في وحدته كلّ التفاصيل فيما دون العرش، وإذا سار هذا الواحد إلى ما دونه لم يزل يتكثر ويتفصل حتى ينتهي إلى أعمال أشخاص المجتمع وإرادتهم.

هذا في النظام الوضعي الاعتباري الذي عندنا، وهو لامحالة مأخوذ من نظام التكوين، والباحث عن النظام الكوني يجد أنّ الأمر فيه على هذه الشاكلة، فالحوادث الجزئية تنتهي إلى علل وأسباب جزئية، وتنتهي هي إلى أسباب أخرى كلية حتى تنتهي الجمعي إلى الله سبحانه غير أنّ الله سبحانه مع كلّ شيء وهو محيط بكلّ شيء وليس كذلك الملك من ملوكنا لحقيّة ملكه تعالى واعتباريّة ملك غيره.

ففي عالم الكون على اختلاف مراحلها تنتهي إليها جميع أزمنة الحوادث الملقاة على كواهل الأسباب، وأزمنة الأسباب على اختلاف أشخاصها وأنواعها، وترتب مراتبها هو المسّمى عرشاً كما سيجيء. وفيه صور الأمور الكونية المدبّرة بتدبير الله سبحانه كيفما شاء، وعنده مفاتيح الغيب.^١

ولابأس باستدامة نقل كلام العلامة الطباطبائي رحمه الله بطوله وإن كان نقل هذا المقدار بتفصيل من مأخذ غير معهود من أرباب التصنيف والتأليف. ومن الجدير جداً نقل كلامه (قدّه) مفصلاً استتماماً للانتفاع به فقال:

كلام في معنى العرش

للناس في معنى العرش بل في معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والآيات التي

في هذا المساق مسالك مختلفة، فأكثر السلف على أنها وما يشاكلها من الآيات من المتشابهات التي يجب أن يرجع علمها إلى الله سبحانه، وهؤلاء يرون البحث عن الحقائق الدينية والتطلع إلى ما وراء ظواهر الكتاب والسنة بدعة، والعقل يخطئهم في ذلك والكتاب والسنة لا يصدقانهم، فأيات الكتاب تحرّض كلّ التحريض على التدبر في آيات الله وبذل الجهد في تكميل معرفة الله ومعرفة آياته بالتذكر والتفكير والنظر فيها والاحتجاج بالحجج العقلية. ومتفرقات السنة المتواترة معنى توافقها، ولا معنى للأمر بالمقدّمة والنهي عن النتيجة، وهؤلاء هم الذين كانوا يحرمون البحث عن حقائق الكتاب والسنة - حتى البحث الكلامي الذي بناؤه على تسليم الظواهر الدينية ووضعها على ما تفيده بحسب الفهم العامي ثمّ الدفاع عنها بما تيسر من المقدّمات المشهورة والمسلّمة عند أهل الدين - ويعدّونها بدعة فلنتركهم وشأنهم.

و أمّا طبقات الباحثين فقد اختلفوا في معناه على أقوال: ١. حمل الكلمة على ظاهر معناها فالعرش عندهم مخلوق كهيئة السرير، له قوائم، وهو موضوع على السماء السابعة والله تعالى عمّا يقول الظالمون، مستوٍ عليه كاستواء الملوك ممّا على عروشهم، وأكثر هؤلاء على أنّ العرش والكرسيّ شيء واحد، وهو الذي وصفناه. وهؤلاء هم المشبهة من المسلمين، والكتاب والسنة والعقل تخاصمهم في ذلك، وتنزّه ربّ العالمين أن يماثل شيئاً من خلقه ويشبهه في ذاتٍ، أو صفة أو فعل تعالى وتقدّس.

٢. إنّ العرش هو الفلك التاسع المحيط بالعالم الجسماني والمحدّد للجهات والأطلس الخالي من الكواكب، والراسم بحركته اليومية للزمان، وفي جوفه مماساً به الكرسي وهو الفلك الثامن الذي فيه الثوابت. وفي جوفه الأفلاك السبعة الكلية التي هي أفلاك السيارات السبع: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر بالترتيب محيطاً بعضها ببعض.

وهذه هي التي يفرضها علم الهيئة على مسلك بطليموس لتنظيم الحركات العلوية

الظاهرة للحسّ طبّقوا عليها ما يذكره القرآن من السماوات السبع والكرسي والعرش، فما وجدوا من أحكامها المذكورة في الهيئة والطبيعات لا يخالف الظواهر قبلوه. وما وجدوه يخالف الظواهر الموجودة في الكتاب ردّوه كقولهم: ليس للفلك المحدّد وراء، لاخلاء، ولاملاء، وقولهم بدوام الحركات الفلكيّة، واستحالة الخرق والإلتيام عليها. وكون كلّ فلك يماش بسطحه سطح غيره من غير وجود بعد بينها، ولا سكنة فيها، وكون أجسامها بسيطة متشابهة لا تقب فيها ولا باب.

والظواهر من القرآن والحديث تثبت أنّ وراء العرش حجباً وسراقات، وأنّ له قوائم، وأنّ له حملة، وأنّ الله سيّطوي السماء كطيّ السجل للكتب، وأنّ في السماء سكنة من الملائكة ليس فيها مواضع إهاب إلّا وفيه ملك راکع أو ساجد يلجونه، وينزلون منه، ويصعدون إليه، وأنّ للسماء أبواباً، وأنّ الجنّة فيها عند سدرة المنتهى التي ينتهي إليها أعمال العباد إلى غير ذلك ممّا ينافي بظاهره ما افترضه علماء الهيئة والطبيعات سابقاً. والقائلون ممّا أنّ السماوات والكرسي والعرش هي ما افترضوه من الأفلاك التسعة الكلّيّة يدفعون ذلك كلّ بمخالفة الظواهر.

ولم ينبهم هذا الاختلاف في الوصف على أنّ ما يصفه القرآن غير ما يفترضه أولئك؛ لتوجيه الحركات العلويّة حتّى أوضحت الأبحاث الأخيرة العميقة في الهيئة والطبيعات المؤيّدّة بالحسّ والتجربة بطلان الفرضيات السابقة من أصلها، فاضطرّ هؤلاء إلى فسح تطبيقتهم ورفع اليد عنه.

٣. أن لامصداق للعرش خارجاً وإنّما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ و ﴿أَلَّا رَحْمَنٌ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ كناية عن استيلائه تعالى على عالم الخلق، وكثيراً ما يطلق الاستواء على الشيء على الاستيلاء عليه كما قيل:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

أو أنّ الاستواء على العرش معناه الشروع في تدبير الأمور كما أنّ الملوك إذا أرادوا

الشروع في إرادة أمور مملكتهم استوتوا على عروشهم، وجلسوا عليه، والشروع والأخذ في أمر وجميع ما ينبئ عن تغيّر الأحوال وتبدّلها وإن كانت ممتنعة في حقّه تعالى لتنتزّه تعالى عن التغيّر والتبدّل لكن شأنه تعالى يسمّى شروعاً وأخذاً بالنظر إلى حدوث الأشياء بذواتها وأعيانها يومئذ فيسمّى شأنه تعالى وهو الشمول بالرحمة إذا تعلّق بها شروعاً وأخذاً بالتدبير، نظير سائر الأفعال الحادثة المقيّدة بالزمان المنسوبة إليه تعالى، كقولنا: خلق الله فلاناً، وأحيا فلاناً، وأمات فلاناً، ورزق فلاناً ونحو ذلك.. وفيه أن كونه قوله:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ جارياً مجرى الكناية بحسب اللفظ وإن كان حقاً لا ينافي أن يكون هناك حقيقة موجودة تعتمد عليها هذه العناية اللفظية، والسلطة، والاستيلاء والملك، والإمارة، والسلطنة، والرئاسة، والولاية، والسيادة، وجميع ما يجري هذا المجرى فبنا أمور وضعيّة اعتباريّة ليس في الخارج منها إلّا آثارها على ما سمعته منّا كراراً في الأبحاث الاعتباريّة السابقة، والظواهر الدنيّة تشابه من حيث البيان ما عندنا من بيانات أمورنا وشؤوننا الاعتباريّة لكنّ الله سبحانه يبيّن لنا أنّ هذه البيانات وراءها حقائق واقعيّة، وجهات خارجيّة ليست بوهميّة اعتباريّة.

فمعنى الملك والسلطنة والإحاطة والولاية وغيرها فيه سبحانه هو المعنى الذي نفهمه من كلّ من هذه الألفاظ عندنا، لكنّ المصاديق غير المصاديق فلها هناك مصاديق حقيقيّة خارجيّة على ما يليق بساحة قدسه تعالى، وأمّا ما عندنا من مصاديق هذه المفاهيم، فهي أوصاف ذهنيّة ادّعائية، وجهات وضعيّة اعتباريّة لاتعدّي الوهم، وإنّما وضعناها وأخذنا بها للحصول على آثار حقيقيّة هي آثارها بحسب الدعوى، فلا يسمّى الرئيس رئيساً إلّا لأن يتّبع الذين نسميهم رؤوسين إرادته وعزائمه لأنّ الجماعة بدون حقيقة وهو رأسهم حقيقة، ولا نسمي جزء الهيئة المؤتلفة عضواً؛ لأنّه يد أو رجل أو كبد أو رئة حقيقة، بل لأن يتصدّى من الأمور المقصودة في هذا التشكيل والاجتماع

ما يتصدّاه عضو من الأعضاء الموجودة في بدن الإنسان مثلاً، وهذا هو الذى يسميه الله تعالى لعباً ولَهْوَاً إذ يقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌَ وَلَعِبٌ﴾^١
فالمقاصد الدنيويّة من زينة، ومال، وأولاد، وتقدّم، ورياسة وحكومة وأمثالها ليست إلّا عناوين وهميّة لا تحقّق لها إلّا في الأوهام، وليس الاشتغال بها لغير المقاصد الأخرويّة إلّا اشتغالاً بأمور وهميّة، وصور خيالية، ولا المسابقة في تحصيلها إلّا كمسابقة الأطفال في تحصيل التقدّم في الملاعب التي يشتغلون بها، وليس إلّا تحصيل حالة خياليّة ليس منها في خارجه عين ولا أثر.

وحاشالله سبحانه أن يذمّ هذه الحياة الفانية الغارّة، ويسمّيها لعباً لما تشتمل عليه من الشؤون الوهميّة، ثمّ يكون تعالى وتقدّس أوّل اللاعبين:

وبالجملة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ في عين أنّه تمثيل يُبين به أنّ له إحاطة تدبيريّة لملكه يدلّ على أنّ هناك مرحلة حقيقيّة هي المقام الذى يجتمع فيه جميع أزمنة الأمور على كثرتها واختلافها، ويدلّ عليه آيات أخر تذكر العرش وحده، وينسبها إليه تعالى كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^٢ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾^٣ وقوله: ﴿وَيَخْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾^٤ وقوله: ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾^٥.

فالأيات - كما ترى - تدلّ بظاهرها على أنّ العرش حقيقة من الحقائق العينيّة وأمر من الأمور الخارجيّة، ولذلك نقول: إنّ «العرش» في قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. التوبة: ١٢٩.

٣. المؤمن: ٧.

٤. الحاقة: ١٧.

٥. الزمر: ٧٤.

مصدّقاً خارجياً ولم يوضع في الكلام لمجرّد تتميم المثل كما نقوله في أمثال كثيرة مضروبة في القرآن فلا نقول في مثل آية النور مثلاً: إنّ في الوجود زوجةً إلهيّةً أو شجرةً زيتونةً إلهيّةً أو زيتاً إلهيّاً، ونقول: إنّ في الوجود عرشاً إلهيّاً أو لوحاً وقلماً إلهيّين، وكتاباً مكتوباً، فافهم ذلك.^١

ثمّ يديم كلامه ﷺ في صفحات بعد هذا، وينقل حديث الجاثليق عن الكافي ويذيله بإفاداته في البحث الروائي ويقول:

و في الكافي عن البرقي رفعه، قال: سأَل الجاثليق عليّاً عليه السلام: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَحْمِلُ الْعَرْشَ أَوِ الْعَرْشُ يَحْمِلُهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ حَامِلُ الْعَرْشِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا. وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾».

قال: فَأَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فَكَيْفَ ذَلِكَ، وَقُلْتَ: «إِنَّهُ يَحْمِلُ الْعَرْشَ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ الْعَرْشَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ أَنْوَارِ أَرْبَعَةٍ: نُورٍ أَحْمَرَ مِنْهُ احْمَرَّتِ الْحُمْرَةُ، وَنُورٍ أَخْضَرَ مِنْهُ اخْضَرَّتِ الْخَضِرَةُ، وَنُورٍ أَصْفَرَ مِنْهُ أَصْفَرَتِ الصَّفْرَةُ، وَنُورٍ أَبْيَضَ مِنْهُ أَبْيَضَ الْبَيَاضُ. وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي حَمَلَهُ اللَّهُ الْحَمَلَةَ، وَذَلِكَ نُورٌ مِنْ نُورِ عَظَمَتِهِ، فَبِعَظَمَتِهِ وَنُورِهِ أَبْصَرَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِعَظَمَتِهِ وَنُورِهِ عَادَاهُ الْجَاهِلُونَ، وَبِعَظَمَتِهِ وَنُورِهِ ابْتَغَى مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقَاتِهِ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ بِالْأَعْمَالِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَالْأَدْيَانِ الْمُتَشَتِّتَةِ، فَكُلَّ شَيْءٍ مَحْمُولٌ يَحْمِلُهُ اللَّهُ بِنُورِهِ وَعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لِنَفْسِهِ ضَرْأً وَلَا نَفْعاً لَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً، فَكُلَّ شَيْءٍ مَحْمُولٌ، وَاللَّهُ

تبارك وتعالى المُمسِك لهما أن تزولا، والمحيط بهما من شيء وهو حياة كل شيء ونور كل شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً».

قال له: فأخبرني عن الله أين هو؟

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومَعْنَا، وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾

فالكُرسيّ محيط بالسّموات والأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى، وذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّاهم الله علمه، وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته. وهو الملكوت الذي أراه الله أصفاءه، وأراه خليله، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم، وبنوره اهدوا إلى معرفته» الخبر.

بحث روائي في حملة العرش

أقول: قوله: «أخبرني عن الله عزّ وجلّ يحمِلُ العرشَ أو العرشُ يَحْمِلُهُ إلخ» ظاهر في أنّ الجائليق أخذ الحمل بمعنى حمل الجسم للجسم، وقوله (عليه السلام) «الله حامل العرش السماوات والأرض» إلخ أخذ للحمل بمعناه التحليلي، وتفسير له بمعنى حمل وجود الشيء وهو قيام وجود الأشياء به تعالى قياماً تبعياً محضاً لاستقلالياً، ومن المعلوم أنّ لازم هذا المعنى أن يكون الأشياء محمولة له تعالى لاحاملة. ولذلك لمّا سمع الجائليق ذلك سأله (عليه السلام) عن قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ فإنّ

حمل وجود الشيء بالمعنى المتقدم يختص به تعالى، لا يشاركه فيه غيره، مع أن الآية تنسبه إلى غيره، ففسر عليه السلام الحمل ثانياً بحمل العلم، وفسر العرش بالعلم، غير أن ذلك حيث كان يوهم المناقضة بين التفسيرين زاد عليه السلام في توضيح ما ذكره من كون العرش هو العلم أن هذا العلم غير ما هو المتبادر إلى الأفهام العامة من العلم، وهو العلم الحسولي الذي هو الصورة النفسانية، بل هو نور عظمته وقدرته حضرت لهؤلاء الحملة بإذن الله، وشهدت لهم، فسمى ذلك حملاً، وهو مع ذلك محمول له تعالى، ولا منافاة كما أن وجود أفعالنا حاضرة عندنا، محمولة لنا وهي مع ذلك حاضرة عند الله سبحانه، محمولة وهو المالك الذي ملكنا إياها.

فنور العظمة الإلهية وقدرته الذي ظهر به جميع الأشياء هو العرش الذي يحيط بما دونه وهو ملكه تعالى لكل شيء، دون العرش وهو تعالى الحامل لهذا النور، ثم الذين كشف الله لهم عن هذا النور يحملونه بإذن الله، والله سبحانه هو الحامل للحامل والمحمول جميعاً.

فالعرش في قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وإن شئت قلت: الاستواء على العرش هو الملك، وفي قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ الآية هو العلم، وهما جميعاً واحد، وهو المقام الذي يظهر به جميع الأشياء ويتمركز فيه إجمال جميع التدابير التفضيلية الجارية في نظام الوجود، فهو مقام الملك الذي يصدر منه التدابير، ومقام العلم الذي يظهر به الأشياء.

وقوله عليه السلام: «فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين» إلخ يريد أن هذا المقام هو المقام الذي ينشأ منه تدبير نظام السعادة الذي وقع فيه مجتمع المؤمنين، وتسير عليه قافلتهم في سيرهم إلى الله سبحانه، وينشأ منه نظام الشقاء الذي ينسبط على جميع المعاندين أعداء الله الجاهلين بمقام ربهم، بل المقام الذي ينشأ منه النظام العالمي العام الذي يعيش تحته كل ذي وجود، ويسير به سائرهم للتقرب إليه بأعمالهم وسننهم، سواء

علموا بما هم فيه من ابتغاء الوسيلة إليه تعالى أو جهلوا.

وقوله ﷺ: «و هو حياة كل شيء، ونور كل شيء» كالتعليل المبين لقوله قبله: «فكل شيء محمول يحمله الله الى آخر مقال، ومحصله أنه تعالى هو الذي به يوجد كل شيء وهو الذي به يدرك كل شيء فيظهر به طريقه الخاص به في مسير وجوده ظهور الطريق المظلم لسائره بواسطة النور، فهي لا تملك لأنفسها شيئاً، بل الله سبحانه هو المالك لها الحامل لوجودها.

وقوله ﷺ: «هو هاهنا وهاهنا، وفوق وتحت» إلخ يريد أن الله سبحانه لما كان مقوماً لوجود كل شيء، حافظاً وحاملاً له لم يكن محلّ من المحالّ خالياً عنه، ولا هو مختصاً بمكان دون مكان، وكان معنى كونه في مكان أو مع شيء، ذي مكان أنه تعالى حافظ له، وحامل لوجوده، ومحيط به، وهو وكذا غيره محفوظ بحفظه تعالى، ومحمول ومحاط له. وهذا يؤل إلى علمه الفعلي بالأشياء. ونعني به أن كل شيء حاضر عنده تعالى غير محجوب عنه، ولذلك قال ﷺ أولاً: «فالكُرسيّ محيط بالسّموات والأرض وما بينهما، وما تحت الثرى» فأشار إلى الإحاطة ثم عقبه بقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فأشار إلى العلم، فأنتج ذلك أن الكرسيّ ويعني به العرش مقام الإحاطة والتدبير والحفظ، وأنه مقام العلم والحضور بعينه، ثم طبّقه على قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية.

وقوله ﷺ: «وليس يخرج عن هذه الأربعة شيء خلق الله في ملكوته» كأنه إشارة إلى الألوان الأربعة المذكورة في أوّل كلامه ﷺ، وسيجيء كلام فيها في أحاديث المعراج إن شاء الله.

وقوله ﷺ: «و هو الملكوت الذي أراه الله أصفياه»، فالعرش هو الملكوت غير أن الملكوت إثنان: ملكوت أعلى، وملكوت أسفل، والعرش لكونه مقام الإجمال وباطن البابين من الغيب - كما سيأتي ما يدلّ على ذلك من الرواية - كان الأخرى به أن يكون

الملوكوت الأعلى.

وقوله ﷺ: «وكيف يحمل حملة العرش الله» الخ تأكيد وتثبيت لأَوَّل الكلام: «إنَّ العرش هو مقام حمل وجود الأشياء وتقويمه»، فحملة العرش محمولون له سبحانه، لاحاملون، كيف؟ ووجودهم وسير وجودهم يقوم به تعالى لا بأنفسهم، ولاعتباره ﷺ هذا المقام الوجودي علماً عبّر عن وجودهم، وعن كمال وجودهم بالقلوب، ونورالاهتداء إلى معرفة الله، إذ قال: «وبحياته حييت قلوبهم، وبنوره اهتدوا إلى معرفته».

وفي التوحيد بإسناده عن حنّان بن سدير، قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن العرش والكرسي فقال: «إنَّ للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كلّ سبب وضع في القرآن صفة على حدة، فقلوه: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يقول: ربّ الملك العظيم، وقوله: ﴿الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ يقول: على الملك احتوى، وهذا علم الكيفية في الأشياء.

ثمّ العرش في الوصل مفرد عن الكرسي؛ لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأنَّ الكرسيّ هوالباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ومنها الأشياء كلّها، والعرش هوالباطن الذي يوجد فيه علم الكيف، والكون، والقدر، والحدّ، والأين، والمشيّة، وصفة الإرادة، وعلم الألفاظ والحركات، والترك، وعلم العود والبدء، فهما في العلم بابان مقرونان؛ لأنَّ ملك العرش سوى ملك الكرسيّ، وعلمه أغيب من علم الكرسيّ، فمن ذلك قال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي صفته أعظم من صفة الكرسيّ، وهما في ذلك مقرونان.

قلت: جعلت فداك، فلم صارفي الفضل جار الكرسيّ؟ قال ﷺ: «إنّه صار جاره؛ لأنَّ علم الكيفية فيه، وفيه الظاهر من أبواب البداء وإنّيّتها، وحدّرتها وفتقتها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الصّرف، وبمثل صّرف العلماء، وليستدلّوا على صدق دعواهما، لأنّه يختصّ برحمته من يشاء وهوالقويّ العزيز».

أقول: قوله ﷺ: «إنَّ للعرش صفات كثيرة» إلخ يؤيد ما ذكرناه سابقاً أنَّ الاستواء على العرش اجتماع أزمّة التدابير العالميّة عند الله ويؤيده ما في آخر الحديث من قوله: «و بمثل صرّف العلماء».

وقوله ﷺ: «و هذا علم الكيفيّة في الأشياء» المراد به العلم بالعلل العالية والأسباب القصوى للموجودات، فإنّ لفظ «كيف» عرفاً كما يسأل به عن الفرض المسمّى اصطلاحاً بالكيف، كذلك يسأل به عن سبب الشيء ولّمه، يقال: كيف وجد كذا؟ وكيف فعل زيد كذا؟ وهولا يستطيع.

وقوله ﷺ: «ثمَّ العرش في الوصل مفرد عن الكرسيّ» إلخ مراده أنَّ العرش والكرسيّ واحد من حيث إنّهما مقام الغيب الذي يظهر منه الأشياء، وينزل منه إلى هذا العالم لكنّ العرش في الصلّة الكلاميّة متميّز عن الكرسيّ؛ لأنّ هذا المقام في نفسه ينقسم إلى مقامين وينشعب إلى بايين لكنّهما مقرونان غير متباينين: أحدهما: الباب الظاهر الذي يلي هذا العالم، والآخر: الباب الباطن الذي يليه، ثمّ بيّنه بقوله: «لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر» إلخ.

قوله ﷺ: «لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر الذي منه مطلع البدع، ومنها الأشياء كلّها» أي طلوع الأمور البيعة على غير مثال سابق، ومنها يتحقّق الأشياء كلّها؛ لأنّ جميعها بديعة على غير مثال سابق، وهي إنّما تكون بديعة إذا كان ممّا لا يتوقّع تحقّقها من الوضع السابق الذي كان أنتج الأمور السابقة على هذا الحادث التي تذهب هي ويقوم هذا مقامها، فيؤول الأمر إلى البداء بإمحاء حكم سبب وإثبات حكم الآخر موضعه فجميع الوقائع الحادثة في هذا العالم المستندة إلى عمل الأسباب المتزاحمة، والقوى المتضادة بدع حادثة وبداءات في الإرادة. وفوق هذه الأسباب المتزاحمة والإرادات المتفائرة التي لا تزال تتنازع في الوجود سبب واحد وإرادة واحدة حاکمة لا يقع إلّا ما يريد فهو الذي يحجب هذا السبب بذاك السبب ويغيّر حكم هذه الإرادة بتلك الإرادة، ويقيد

إطلاق تأثير كل شيء بغيره كمثل الذي يريد قطع طريق لغاية كذا فيأخذ في طيئه، وبينهما هو يطوي الطريق يقف أحياناً ليستريح زماناً، فعلة الوقوف ربّما تنازع علة الطي والحركة وتوقفها عن العمل، والإرادة بغير الإرادة لكن هناك إرادة أخرى هي التي تحكم على الإرادتين جميعاً وتنظم العمل على ماتميل إليه بتقديم هذه تارة وتلك أخرى والإرادتان أعنى سببي الحركة والسكون وإن كانت كلّ منهما تعمل لنفسها وعلى حدتها وتنازع صاحبتهما لكنهما جميعاً متفقتان في طاعة الإرادة التي هي فوقهما، ومتعاضدتان في إجراء ما يوجبه السبب الذي هو أعلى منهما وأسنئ.

فالمقام الذي ينفصل به السببان المتنافيان وينشأ منه تنازعهما بمنزلة الكرسي والمقام الذي يظهر فيه متلازمان متآلفين بمنزلة العرش، وظاهر أنّ الثاني أقدم من الأوّل وأنهما يختلفان بنوع من الإجمال والتفصيل، والبطون والظهور.

وأخرى بالمقامين أن يسميّا عرشاً وكرسيّاً لأنّ فيهما خواصّ عرش الملك وكرسيّه فإنّ الكرسيّ: الذي يظهر فيه أحكام الملك من جهة عمّاله وأيديه العمّالة، وكلّ منهم يعمل بحيال نفسه في نوع من أمور المملكة وشؤونها، وربّما تنازعت الكراسيّ، فيقدّم حكم البعض على البعض ونسخ البعض حكم البعض، لكنهما جميعاً تتوافق وتتحدّ في طاعة أحكام العرش وهو المختصّ بالملك نفسه فعنده الحكم المحفوظ عن تنازع الأسباب غير المنسوخ بنسخ العمّال والأيدي، وفي عرشه إجمال جميع التفاصيل وباطن ما يظهر من ناحية العمّال والأيدي.

وبهذا البيان يتّضح معنى قوله ﷻ: «لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر» إلح فقوله: «منه مطلع البدع» أي طلوع الأمور الكونيّة غير المسبوقّة بمثل، وقوله: «ومنها الأشياء كلّها» أي تفاصيل الخلقة ومفرداتها المختلفة المتشعّبة.

وقوله: «والعرش هو الباب الباطن» قبال كون الكرسيّ هو الباب الظاهر. والبطون والظهور فيهما باعتبار وقوع التفرّق في الأحكام الصادرة وعدم وقوعه، وقوله: «يوجد

فيه» إلخ أي جميع العلوم والصّور التي تنتهي إلى إجمالها تفاصيل الأشياء.
وقوله: «علم الكيف» كأنّ المراد بالكيف خصوصيّة صدور الشيء عن أسبابه. وقوله:
«والكون» المراد به تمام وجوده، كما أنّ المراد بالعود والبدء أوّل وجودات الأشياء
ونهايتها وقوله: «والقدر والحدّ» المراد بهما واحد غير أنّ القدر حال مقدار الشيء
بحسب نفسه، والحدّ حال الشيء بحسب إضافته إلى غيره ومنعه أن يدخل حرمة نفسه
وبمازجه، وقوله: «والأين» هو النسبة المكانيّة، وقوله: «والمشيّة وصفة الإرادة» هما
واحد.

و يمكن أن يكون المراد بالمشيّة أصلها وبصفة الإرادة خصوصيتها. وقوله: «علم
الألفاظ والحركات والترك» علم الألفاظ هو العلم بكيفيّة انتشاء دلالة الألفاظ بارتباطها
إلى الخارج بحسب الطبع فإنّ الدلالة الوضعيّة تنتهي بالأخرة إلى الطّبع، وعلم الحركات
والترك، العلم بالأعمال والتروك من حيث ارتباطها إلى الدّوات، ويمكن أن يكون المراد
بمجموع قوله: «علم الألفاظ وعلم الحركات والترك» العلم يكتفيه انتشاء اعتبارات
الأوامر والنواهي من الأفعال والتروك، وانتشاء اللغات من حقائقها المنتهية إلى منشأ
واحد، والترك هو السكون النسبيّ في مقابل الحركات.

وقوله: «لأنّ علم الكيفيّة فيه» الضمير للعرش، وقوله: «وفيه الظاهر من أبواب البداء»
الضمير للكرسيّ، والبدء ظهور سبب على سبب آخر وإبطاله أثره، وينطبق على جميع
الأسباب المتغايرة الكونيّة من حيث تأثيرها.

وقوله ﷺ: فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الصرف» المراد به على ما يؤيّده
البيان السابق أنّ العرش والكرسيّ جاران متناسبان، بل حقيقة واحدة مختلفة بحسب
مرتبتيه الإجمال والتفصيل. وإنّما نسب إلى أحدهما أنّه حمل الآخر بحسب صرف
الكلام وضرب المثل، وبالأمثال تبيّن المعارف الدقيقة الغامضة للعلماء.

وقوله: «وليسندّوا على صدق دعواهما» أي دعوى العرش والكرسيّ أي وجعل هذا

المثل ذريعة لأن يستدلّ العلماء بذلك على صدق المعارف الحقّة الملقاة إليهم في كيفيّة انتشاء التدبير الجاري في العالم من مقامي الإجمال والتفصيل والباطن والظاهر. فافهم ذلك.

و في التوحيد بإسناده عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ الآية، فقال: «ما يقولون؟» قيل: يقولون: إنّ العرش كان على الماء والربّ فوقه، فقال: «كذبوا، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً و وصفه بصفة المخلوقين، ولزمه أنّ الشيء الذي يحمله هو أقوى منه. قال: «إنّ الله حمّل دينه وعلمه الماء قبل أن تكون سماء أو أرض أو جنّ أو انس أو شمس أو قمر».

أقول: وهو كسابقه في الدلالة على أنّ العرش هو العلم، والماء أصل الخلقة، وكان العلم الفعلي متعلّقاً به قبل ظهور التفاصيل.

و في الاحتجاج عن علي عليه السلام: أنّه سئل عن بُعد ما بين الأرض والعرش، فقال: «قول العبد مخلصاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أقول: وهو من لطائف كلامه عليه السلام أخذه من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، ووجهه أنّ العبد إذا نفى عن غيره تعالى الألوهيّة بإخلاص الألوهيّة والاستقلال له تعالى أوجب ذلك نسيان غيره، والتوجّه إلى مقام استناد كلّ شيء إليه تعالى، وهذا هو مقام العرش على ما مرّ بيانه.

ونظيره في اللطافة قوله عليه السلام وقد سئل عن بُعد ما بين الأرض والسماء: «مدّ البصر ودعوة المظلوم».^١

انتهى ما أردنا نقله من كلام العلامة الطّباطبائي رحمه الله في الميزان.

ادعاء نوح لإدخال المؤمنين الجنة

﴿٨﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ

تكرار النداء بلفظ ربنا للاستعطاف والاعتناء بلفظة الرب مختصاً بوقت الدعاء دون اسم الله مع أنه أعظم للتوجه إلى مناسبته المقام وربوبيته حضرة الحق جلّ جلاله، فإنّ الربّ هو الذي يدبّر أمر ربّاه ومملوكه، ويتولّى إصلاح أموره من جميع الجهات الماديّة والمعنويّة والذنيويّة والأخرويّة، فكانّ العبد بلسان حاله يقول: كنتُ في كتم العدم المحض، والنفي الصرف، فأخرجتنى إلى الوجود وربّيتني في إحسانك وعنايتك ودبرت أمري، فانظر إليّ بعين التربية، ولا تخلني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك القديم إليّ، فبعد هذا الخطاب والنداء إلى ربّه فليحسن الداعي الثناء عليه، والصلاة على رسوله وآله الغرّ، ثمّ يستدعي حوائجه والعقل يحكم برعاية هذا الترتيب. وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء، ولهذه النكته الشريفة نرى الدعاء في أكثر الأمور مذكوراً بلفظ «ربّنا» كما قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ الْآيَةَ وَقَالَ آدَمُ ﴿٩﴾: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^١، وقال نوح ﴿١٠﴾: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ

بِكَ أَنْ أَشَأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ^١ الآية وقال أيضاً: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِنِائِلٍ وَنَهَارِ اللَّهِ^٢﴾ وقال أيضاً: ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ^٣﴾، وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ^٤﴾ وقال: ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ^٥﴾، وقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ^٦﴾، قال موسى في قصّة الوكر: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي^٧﴾، وقال سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا^٨﴾، وقال عيسى: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً^٩﴾، وقال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ^{١٠}﴾ وحكى سبحانه عن المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾. وأعاد إلى آخر السورة هذه اللفظة خمس مرّات. ^{١١} فلا بدّ أن نتعلّم من التعليم القرآني والتربية الإلهيّة أنّ الأولى في الدعاء أن ينادي العبد ربّه بقوله: «يا ربّ» كما وردت في آداب الدعاء خصوص هذه اللفظة المباركة.

﴿جَنّاتٍ عَذْنٍ﴾ جنّات جمع الجنّة، وهي مشتقّة من جنّ الشيء، يجنّه جنّاً؛ ستره، وكلّ شيء سِتَرٌ عنك فقد جُنّ عنك. وفي الحديث «جَنّ عليه الليل» أي ستره، وبه سمّي الجنّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، وجنّ الليل وجنّونه وجنّاته شدّة

١. هود: ٤٧.

٢. المؤمنون: ٩٨.

٣. إبراهيم: ٤١.

٤. البقرة: ٢٦٠.

٥. إبراهيم: ٤١.

٦. البقرة: ١٢٨.

٧. القصص: ١٦.

٨. الشعراء: ٨٣.

٩. المائدة: ١١٧.

١٠. المؤمنون: ٩٨.

١١. آل عمران: ١٩١.

ظلمته، وأذلهمامه، وسَمِّي القلب جناناً؛ لأنَّ الصدر أَجَنَّةٌ والجنين: الولد مادام في بطن أمه؛ لاستتاره فيه، وكلَّ مستور جنين حتى مثل حقد جنين، والجنة في المقام البستان والحديقة الكثيرة الشجر التي تلتف وتتكاثر أشجارها بحيث تكون كالستر والظل بالتفاف أعضائها. ولا ينفذ النور إلى ما تحتها وأرضها. والجنة هي دار النعيم في الدار الآخرة من الاجتنان، وهو الستر لتكاثر أشجارها، وتظليلها بالتفاف أعضائها؛ ولكثرة التفافها وتكاثرها وتظليلها لما تحتها، فكأنَّ النور لا ينفذ إلى أرض الجنة ويتخيَّل كأنَّ الأنهار تجري من تحتها لافي أرضها.

﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والعدن: الخلود والإقامة الدائمة. ﴿وَجَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي جَنَّاتٍ عدنٍ وإقامة وخلود. لازوال ولا تزلزل فيها، يقال: عَدَنَ فلانٌ بالمكان يعدنٌ ويعدُنُ عدناً وعُدُوناً، أقام وعَدَنُتُ البلدَ توطَّنتُهُ ومركز كلِّ شيء معدنه وجَنَّاتٍ عدنٍ منه، جَنَّاتٍ إقامة لِمكان الخلد. واسم عدنان مشتق من العدن وهو أن تلزم الإبل المكان فتألفه ولا تبرحه. والمعدن بكسر الدال وهو المكان الذي يثبت فيه الناس لأنَّ أهله يقيمون فيه، ولا يتحوَّلون عنه شتاءً ولا صيفاً. ومعدن الذهب والفضة سَمِّي معدناً لأنبات الله فيه جوهرهما وإنباته إيَّاه في الأرض حتى عَدَنَ أي ثبت فيها.^١

و عن رسول الله ﷺ: «عدنُ دار الله التي لم ترها عين ولم يخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيين، والصديقين، والشهداء، يقول الله عزَّ وجلَّ: طوبى لمن دَخَلَكَ».

﴿وَعَدْتُهُمْ﴾ والوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله وفي كتبه لطفاً لهم وعنايةً بهم. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ موضع «مَنْ» نصب بالعطف

على موضع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو بالعطف على ضمير ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾، وأشار إلى هذا الفرآء والزجاج. وقرأ «صَلَح» بضم اللام والفتح أفصح. والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة فالدعاء استدعاء، لإدخال كل من يصلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل وقد جعلوا هذه الطائفة الصالحة تابعة للطائفة الأولى الذين تابوا واتَّبَعُوا سَبِيلَ اللَّهِ ووعدهم الله جنّات عدنٍ. فالطائفة المتبوعة الأولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على مقتضى حقيقة معنى قولهم: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ والطائفة التابعة الثانية دون هؤلاء في المنزلة. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على ما يشاء، الْحَكِيمُ في أفعالك. وفي هذا استشفاع بسعة رحمة الله وسعة علمه لذكر الحاجة، وهي المغفرة والجنة.

و في الميزان كان مقتضى الظاهر أن يقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لكنه عدل إلى ذكر الوصفين «العزیز الحكيم»؛ لأنه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ولازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أن له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء ويمنع ما يشاء ممن يشاء. وهذا معنى العزة التي هي القدرة على الإعطاء والمنع. ولازم سعة العلم لكل شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئاً منها، ولازمه إتقان الفعل وهو الحكمة.

الدعاء لوقاية المؤمنين عن استبئات^١

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

استدعاء لملائكة الرحمة، حامليين العرش ومن حوله بصرف سوء عاقبة السيئات عن المؤمنين، ومن اتقى السيئات يصرف عنه سوء العاقبة، وينجو من العذاب وذلك هو الفوز العظيم للنجاة من النار ودخول الجنة. ولعلّ هذا تعميم بعد تخصيص بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ لشموله العقوبة الدنيوية والأخروية ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾.

وَقَاهُ يَقِيهِ وَقَايَةً، أي حفظه ممّا يؤذيه وَيَضُرُّهُ. و«السيئات» مفعول ثانٍ لِقِهِمْ. جمع السيئة محلّة بالألف واللام دالّة على العموم. والكلام على تقدير المضاف، أي «وقهم جزاء السيئات، وادفع عنهم عذابها، وجزاءها، ويجوز أن يكون المراد من السيئات نفس العذاب اتّساعاً ومجازاً، كما في ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^١ أو من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم، وهو الجزاء والعقاب، هذا على تقدير

المضاف. وإن قلنا بتعلق الوقاية على نفس السيئات، فيحتمل أن يكون بمعنى الوقاية والحفظ عن العقائد الفاسدة، والملكات الرذيلة، والصفات الخبيثة، والأعمال القبيحة، والأفعال السيئة. وهذا يستلزم كون «يومئذ» إشارة إلى الدنيا. وظاهر السياق كون المراد يوم القيامة. ويستلزم هذا تقدير المضاف، أي جزاء السيئات وأهوالها وعقابها.

﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ﴾ تصرف وتدفع عنه شرّ معاصيه وعذابها شرّ عاقبة سيئاته من صغيرة اقترفها، أو كبيرة تاب منها تفضّلت عليه. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ وأنعمت عليه بدفع عذابها وإسقاط عذابها «يومئذ» يوم القيامة ويوم الجزاء والمؤاخذه. ذلك هذه الرحمة المفهومة من ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ أو الوقاية المفهومة من فعلها أو مجموعها ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الظفر بالبغية والفلاح العظيم، النجاة من النار ودخول الجنة وهو الفوز الذي لا فوز أجمل منه، والظفر الذي لا ظفر مثله، والنجاة التي لا تساويها نجاة، والوصول إلى نعيم لا ينقطع وملك لا تصل العقول إلى كنه جلاله وعظمته. والعظيم في القرآن ذو عظمة لا توصف ولا تحدّ:

و تعبد هذه الآيات الكريمة التي تنبئ عن التفضّل على الذين آمنوا باستغفار الملائكة لهم، ودعائهم للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم بالدخول في جنّات عدن التي وعد الله جلّ جلاله لهم، وهو الفوز العظيم، يعود الكلام الإلهي إلى سوء حال الكافرين المتقدّم ذكرهم، فقال عزّ اسمه.

كفران الذين يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى
الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

اختلف في وجه دخول اللام في قوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ من أنه بمعنى أن «أو»
للابتداء.

قال الفرّاء في معاني القرآن: يُنادون لمقتِ الله، أي ينادون أن مقتَ الله إياكم.
لأنّ اللام تنوب عن أن في مثل الكلام كما يقولون: «ناديتُ» أن زيدا قائم، وناديت
«لزيد قائم».

و في الثبيان، قال البصريّون: هذه لام الابتداء، كما يقول القائل: لزيد أفضل من
عمرو، أي يقال لهم، والنداء قول. و في فتح القدير للشوكاني: قال الأخفش: هذه
اللام في «لمقتُ» هي لام الابتداء وقعت بعد «ينادون»؛ لأنّ معناه يقال لهم، والنداء
قول، وفي الكلام حذف، أي لمقت الله إياكم. وتوضيحاً لمعنى الآية الشريفة نقول:
إنّ معنى ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ دعوتهم إلى الإيمان في الدنيا، وهي ظرف متعلّق
لمقتِ الله. وظهر «إذ» في الظرفيّة وهي الغالب في الكلمة، ولا بدّ من استعمالها في
الماضي ولو معنّى وهذا هو الفرق المهمّ بين «إذ» و«إذا» فإنّ إذا تختصّ بالمستقبل

كما أن إذ تختص بالماضي. وكلمة إذ تلزم الإضافة إلى الجملة، اسمية كانت أو فعلية ماضية لفظاً، نحو ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِذْ أُنْتَلِيَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾. وإن كانت الجملة مضارعة لفظاً، فلا بد من كونها ماضية معنى نحو ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِذْ يُمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلا بد من أن يكون «إذ» في الآية الشريفة في المقام ظرفية وهي تلزم الماضوية في الفعل، ومشيرة إلى ظرف دعوتهم في الدنيا من قبل الأنبياء والمرسلين، وإنكارهم لتلك الدعوة الشريفة المباركة. واعتراض غير واحد عليه بلزوم الفصل بين المصدر ومفعوله بأجنبي وهو الخبر، غير وارد لأن الظروف متسع فيها، كما في أمالي ابن الحاجب أنه لا بأس بذلك.

فلنتوجه إلى الآية الشريفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

في قبال استبشار الملائكة بالرحمة والعناية والفوز العظيم للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ استخفافاً وإذلاً لهم، يناديهم ملائكة العذاب يوم القيامة وهم يتلظون النار، ويدوقون العذاب، يمقتون أنفسهم ويبغضونها أشد البغض بما أسلفوا من سيئ الأعمال التي كانت سبب دخولهم في النار. ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ لكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وكأن التعبير بالمضارع «تتكفرون» للإشارة إلى الاستمرار التجديدي بتكرار الكفر منهم بعد دعوتهم مرة بعد مرة إلى الإيمان.

و يوم القيامة يوم الحق والشهود المحض، فتبلى السرائر، ويظهر للكافرين حقيقة مقتهم الأمانة بترك الإيمان والصرورة إلى الكفر، فيرون أعمالهم، وينظرون في كتابهم، وقد أدخلوا النار، مقتوا أنفسهم لسوء صنيعهم حتى في حق أنفسهم، فينادون حينئذ ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ

فَتَكْفُرُونَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ اليوم والمقت أشدّ البغض والعداوة ووضع موضع أبلغ الإنكار وأشدّه كناية عن شدة العذاب والعقاب؛ لأنّه جلّ شأنه منزّه عن العوارض والحالات.

وفي البرهان في ذيل رواية جابر بن يزيد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بني أميّة يُنادون ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ يعني ولاية عليّ وهي ﴿الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وفي نورالثقلين عن تفسير عليّ بن إبراهيم مثل هذا، ولكنّه تفسير وتأويل بالمصدق الأجلّى دون الحصر.

وبعد هذا النداء الموجب لخذلان الكافرين في النار فضيحتهم بأعمالهم يقولون استغاثَةً واعتراضاً واستعطافاً.

اعتراف الكفار بإماتتهم وإحيائهم مرتين

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾

قالوا: هؤلاء الكافرون المنكرون للقبر والسؤال والبعث والتشور معترفون بذنوبهم التي اقترفوها في الدنيا: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا استعطاف منهم، وطلب للغاية والترحم لهم، والتوصل إلى التخلص من العذاب ولات حين مناص ﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ والسياق تدلّ على صدور هذا القول منهم بعد اشتماع النداء السابق وهم في النار لإشعار قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

واختلف في معنى الآية الشريفة بوجوه: أحدها: الإمامة الأولى: الإمامة بعد الحياة الدنيوية، والثانية: في القبر قبل البعث. والإحياء الأوّل في القبر للمسائلة، والثانية في المحشر وهو رأي علمائنا الأكارم ومنقول عن السّدي ومختار البلخي. ثانيهما: الإمامة الأولى كونهم نطفاً فأحياهم الله في الدنيا ثمّ أماتهم الموتة الثانية، وإحياءهم ثانياً للبعث. فهما حياتان وموتتان تنظيراً بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نقل عن ابن عباس وقتادة والضحاك ومختار أبي مسلم. ثالثتهما: أنّ الحياة الأولى في الدنيا والثانية في القبر، ولم يرد الحياة يوم القيامة.

والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر عن الجبائي.

وقد نقل انتساب هذه الأقوال إلى أنظار جملة من الفسرين في كتب التفاسير من دون التمسك بما يظهر من الآية الشريفة وكلام المعصوم عليه السلام. والاولى لنا النظر الى النفس الآية وما هو الظاهر المستفاد منها. فلفظتي «اثنتين» هما وصفان للمصدر المحذوف، أي إماتتين اثنتين وإحياءتين اثنتين. وقيل: إنهما وصفان لموتتين وحياتين وهذا خلاف الظاهر؛ فإن المصدرين المقدرين من الفعلين المصرحين بهما أعني الإماتة والإحياء لا الموت والحياة وتحقق كل من الإماتة والإحياء يتوقف على سبق خلافه. فالإماتة لا بد أن تكون عن حياة، كما أن الإحياء لا بد أن يكون عن ممات، فلا مجال لأن يقال: إن الإماتة الأولى حال كونهم نطفاً فأحياهم الله في الدنيا بدعوى أن الإماتة كون الشيء عادم الحياة ابتداءً بإقاؤه كذا ولو بتصيير كالتصغير والتكبير الابتدائيين، وقد بسط الكشف الكلام في المقام فقال:

فإن قلت: كيف صح أن تقول: سبحانه من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل. وقولك للحقار: ضيق فم الركية، ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء، فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه منه كنقله منه.

و أنت خبير ببناء هذه التكاليفات والتحملات على ما هو خلاف ظاهر الكلمة الشريفة «الإماتة» ولهذا تكلف للجواب عن إشكال وارد في الآية وهو لزوم كون الإحياءات ثلاثة: الأولى: في الدنيا، والثانية، في القبر للمساءلة؛ والثالثة: في الآخرة عند لبعث: وهذا خلاف ظاهر الآية قطعاً، مضافاً إلى أن مجرد هذه الإماتة، أي الإبقاء على عدم الحياة، والإحياء بعد عدم الحياة ليسامورئين وموجبين لليقين

بالمعاد، والاعتراف بالذنوب، واقتراح الكفر والشرك والمعاصي، وكانوا في الدنيا في ريب من البعث والإيمان بالله، فأنكروا ونسوا يوم الحساب، واسترسلوا في الذنوب، وأرخوا العنان في المعاصي ونسيان يوم الحساب مفتاح كل الضلالات والمعاصي. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^١.

والعجب أن القرآن يصرح بأن الكفار والمشركين لا يرون الإماتة عن الحياة الدنيوية والموت بعد هذه الحياة إلا إماتة أولى، واعترفوا بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾^٢.

فظهر أن الإماتة الأولى لا بد من أن تكون إماتة عن هذه الحياة الدنيوية التي مسبوقة بالحياة، والإحياء الأولى للبرزخ للمساءلة. ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة، فتدل الآية على الحياة البرزخية، ولولاها لم يتحقق الإماتة الثانية، والإماتتان والإحياءتان هما حالة عامة لجميع الخلاق، كما أن هذه المقالة تحكي عن حالة عامة لأهل النار، وهذا لا ينافي تحقق ثلاث إماتات وإحياءات بالنسبة إلى بعض الخلاق، كما في الرجعة وهي خاصة لمن محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً، وهذه الرجعة لأقل القلائل من الخلاق فكيف بجميع أهل النار.

وقدر روي عن الصادق عليه السلام قيل له: إِنَّ الْعَامَّةَ تَزْعُمُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾^٣ عَنَى فِي الْقِيَامَةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَفِيحْشَرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا، وَيَدْعُ الْبَاقِينَ؟ وَلَكِنَّهُ فِي الرَّجْعَةِ». وَأَمَّا آيَةُ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ «وَحْشَرْنَاَهُمْ

١. ص: ٢٦.

٢. الدخان: ٣٥.

٣. النخل: ٨٣.

فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٢١.

فاعترفنا بذنوبنا التي ارتكبتها، واقترفنا في الدنيا، ولا يمكننا جردها، وإننا نتمنى الخروج: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ سؤال اليأس القاطن المتحير: استدعاء منهم وتلطف بأنه هل بعد الاعتراف سبيل إلى الخروج عن هذه المصائب وتنكير الخروج والسبيل لشدة قنوطهم ويأسهم للخروج والنجاة.

قيل: إنهم سألوا الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا للتدارك والعمل بطاعة الله، والله سبحانه يعلم أنهم لا يفلحون لذلك ولو رُدُّوا إلى الدنيا ودار التكليف، ولوردوا لعادوا لما نُهوا عنه، ولكنهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنَّوه، وفي الكلام حذف معلوم من الآية الشريفة، فأجيبوا بأنه لا سبيل لكم إلى الخروج، ولا إشكال في دلالة الآية الشريفة على الإحياء في القبر للمساءلة عن الموتى.

و قال العلامة المجلسي إنَّ سؤال القبر ممَّا أجمع عليه المسلمون، بل هو ضروريّ دين الإسلام، وقد دلَّت الآيات والأحاديث الكثيرة عليها، ومن أراد الوقوف عليها فليراجع بحار الأنوار، ولنُبشِّرَك بنقل عدد منها.

وفي البحار نقلاً عن أمالي الشيخ: الحفّار، عن إسماعيل بن عليّ الدعبلّي، عن أبيه، عن أخي دعبل، عن شعبة بن الحجاج، عن علقمة بن مزيد، عن سعد بن عبيد، عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُكَبِّرُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. قال: «في القبر إذا سأل الموتى».^٣

و في البحار عن أمالي الصدوق: عليّ بن حاتم، عن عليّ بن الحسين النحوي،

١. الكهف: ٤٧.

٢. راجع مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٤.

٣. بحار الأنوار، ج ٦ ص ٢٢٨ نقلاً عن أمالي الصدوق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

عن البرقي، عن أبيه، عن سليمان بن مقبل، عن موسى بن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: «إذا مات المؤمن شيعة سبعون ألف ملك إلى قبره، فإذا دخل قبره أتاه منكر ونكير فيقعدانه ويقولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومن نبيُّكَ؟ فيقول: رَبِّي الله، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، فيفسحان له في قبره مدَّبصره، ويأتيانه بالطعام من الجنة. ويدخلان عليه الروح والريحان، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ * ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ يعني في قبره، ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ يعني في الآخرة».

ثم قال عليه السلام: إذا مات الكافر شيعة سبعون ألفاً من الزبانية إلى قبره، وإنه ليناشد حامله بصوت يسمعه كل شيء إلا الثقلان، ويقول: لو أن لي كرامة فأكون من المؤمنين، ويقول: ﴿أَرْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فتجيبه الزبانية: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ويناديهم ملك: لوردد لغاد لما نهى عنه، فإذا أدخل قبره وفارقه الناس أتاه منكر ونكير في أهول صورة فيقيمانه ثم يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيتلجلج لسانه، ولا يقدر على الجواب فيضربانه ضربة من عذاب الله يذعر لها كل شيء، ثم يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا هديت ولا أفلحت، ثم يفتحان له باباً إلى النار، وينزلان إليه من الحميم من جهنم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ * ﴿فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني في القبر ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ﴾ يعني في الآخرة»^١.

وفي البحار: قال البرقي في مشارق الأنوار: روى المفيد بإسناده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه السلام: «يا علي إن محبيك يفرحون في ثلاثة مواطن: عند خروج أنفسهم وأنت هناك تشهدهم، وعند المساءلة في القبور وأنت هناك تلقئهم،

وعند العرض على الله وأنت هناك تعرفهم».

و ذيل العلامة المجلسي رحمه الله الرواية بقوله:

اعلم أنّ حضور النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عند الموت ممّا قد ورد به الأخبار المستفيضة، وقد اشتهر بين الشيعة غاية الاشتهار، وإنكار مثل ذلك لمحض استبعاد الأوهام ليس من طريقة الأخيار. وأمّا نحو حضورهم وكيفيته فلا يلزم الفحص عنه، بل يكفي فيه وفي أمثاله الإيمان به مجملاً على ما صدر عنهم عليهم السلام إلى آخر كلامه الشريف فارجع واغتنم.^١

ولنتبرّك بذكر رواية أخرى عن البحار: عن الروضة وكتاب الفضائل قيل: لمّا ماتت فاطمة بنت أسد أمّ أمير المؤمنين عليه السلام، أقبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام باكياً، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟ لأبكي الله عينك، قال: توفّت والدتي يا رسول الله، قال له النبي ﷺ: بل والدتي يا عليّ، فلقد كانت تجوع أولادها وتشبعني، وتشعث أولادها وتدهّني، والله لقد كان في دار أبي طالب نخلة فكانت تسابق إليها من الغداة لتلتقط ثمّ تجنيه ﷺ فإذا خرجوا بنو عمّي تناولني ذلك».

ثمّ نهض عليه السلام فأخذ في جهازها، وكفّنها بقميصه عليه السلام وكان في حال تشييع جنازتها يرفع قدماً ويتأني في رفع الآخر وهو حافي القدم، فلمّا صلى عليها كبر سبعين تكبيرة. ثمّ لحدها في قبرها بيده الكريمة بعد أن نام في قبرها، ولقّنها الشهادة، فلمّا أهيل عليها التراب وأراد الناس الانصراف، جعل رسول الله ﷺ يقول لها: «ابنك، ابنك، ابنك لاجعفر ولاعقيل، ابنك، ابنك، عليّ بن أبي طالب»، قالو: يا رسول الله فعلتَ فعلاً ما رأينا مثله قطّ: مشيك حافي القدم، وكبرت سبعين تكبيرة، ونومك في لحدها، وقميصك عليها، وقولك لها: «ابنك، ابنك، لاجعفر ولاعقيل». فقال عليه السلام: «أمّا

التأني في وضع أقدامي ورفعها في حال التشيع للجنابة فلكثرة ازدحام الملائكة. وأما تكبيري سبعين تكبيرة فإنها صلى عليها سبعون ألفاً من الملائكة. وأما نومي في لحدّها، فإنّي ذكرت في حال حياتها ضغطة القبر، فقالت: واضعاه، فنمت في لحدّها لأجل ذلك حتى كفيّتها ذلك، وأما تكفيني لها بقميصي، فإنّي ذكرت لها في حياتها القيامة وحشر الناس عراة. فقالت: واسوأته فكفّنتها به، لتقوم يوم القيامة مستورة، وأما قلبي لها: ابنك، ابنك، لا جعفر ولا عقیل، فإنّها لما نزل عليها الملكان وسألاها عن ربّها. فقالت: الله ربّي، وقالّا: من نبيك، قالت: محمد نبيّي، فقالّا: من وليك وإمامك، فاستحيّت أن تقول: ولدي، فقلت لها: قلبي: ابنك علي بن أبي طالب عليه السلام فأقرّ الله بذلك عينها.^١

ولنرجع إلى ذيل الآية الشريفة: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وقد ذكرنا أنّ تنكير الخروج والسبيل لشدة قنوطهم ويأسهم للخروج والنجاة، فيتمسكون خروجاً ما، ويطلبون سبيلاً ما. ومثل هذا التركيب يستعمل عند اليأس والقنوط الكامل، وليس المقصود به الاستفهام، وإنّما قالوه من فرط القنوط واليأس تعللاً وتحيراً، ولذلك أجيبوا بذكر ما أوقعهم في الهلاك، من غير جواب عن الخروج والسبيل نفيّاً وإثباتاً استخفافاً وإذلالاً لهم، وهذا جواب بالنفي والإهانة على أبلغ وجه، فقال سبحانه.

[فى مذمة الكفار لإنكارهم توحيد الله]

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

أي ذلكم البلاء العظيم الذي حلّ بكم، فالإشارة إلى شدة حالهم والضمير للشأن، أي بسبب أنّ الشأن، إذا دعي الله وحده، وعُبدَ سبحانه وحده في الدنيا، ودُعِيَ واحداً منفرداً من دون شريك، كفرتم بتوحيده وجحدتم وأنكرتم ذلك وقتلتم: اجعل الآلهة إلهاً واحداً. ووحده مصدر حال أقيم مقام فعله أو ما بحكم الفعل الذي هو الحال حقيقة، أي إذا دعي الله واحداً منفرداً. أو تَوَحَّدَ وحده أن يشرك به سبحانه من منزّه من ذلك تؤمنوا وتدعونا بإشراك الأصنام والأوثان في عبوديته. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^١ وكم لهم من نظير في توالي القرون حتى في عصرنا الحاضر كأنهم حمر مستنفرة من الإيمان والتوحيد والتقوى، فإذا هم قطعوا عن الله بالمرّة، وكفروا بكلّ ما يريده، وآمنوا بكلّ ما يكرهه، فالله العليّ الكبير يقطع عنهم ويحكم فيهم

بالحقّ والحكمة من دون ترخّم ورعاية. فهذا اليوم فالحكم لله المستحقّ للعبادة، والحاكم عليهم بالعذاب الدائم الذي لا يحكم إلّا بالحقّ، ولا يقضي إلّا بما تقضيه الحكمة. العليّ من أن يشرك به، والقادر الذي ليس فوقه من هو أقدر منه أو يساويه في مقدوره. وجاز وصفه تعالى بالعليّ؛ لأنّ الصفة قد تقلب من علوّ المكان إلى علوّ الشأن، يقال: استعلى عليه بالقوّة، واستعلى عليه بالحجّة.

«الكبير» المتّصف بنهاية الكبرياء، والعظيم في صفاته التي لا يشاركه فيها غيره، فهو أجلّ من أن يشرك به، وهو الواحد ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذا اشتدّ اليوم سطوته وغضبه وعذابه على المشركين الخالدين في التّار، فلا سبيل لخروجهم أبداً إذا كانوا مشركين، وأنّه لظلم عظيم، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. قال الحقّي في روح البيان: وفي الإرشاد في إيراد «إذا» وصيغة الماضي في الشرطية الأولى و«إن» وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفي من الدلالة على كمال سوء حالهم، وتُثقل عينُ العبارة في روح المعاني للآلوسي، ولعلّ وجه هذا الكلام أنّ «إذا» الشرطيّة فأكثر تحقّقها ناظرة إلى الظرفيّة المتحقّقة، والزمان الماضي وإن كان بمعنى المستقبل باقتضاء الشرط إلّا أنّ الأمرين ناظران إلى ظرف التحقّق والفعليّة، أي كفرهم عند الدعوة إلى التوحيد، وهذا بخلاف «إن» الشرطيّة والفعل المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار عند فعليّة الشرط بكلّ ما يلوح منه سمة الشرك، ولهذا قال العلامة الطباطبائي في الميزان:

وفي قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ دلالة على الاستمرار، والكلام مسوق لبيان معاندتهم للحقّ، ومعانداتهم لتوحيدهم تعالى، فهم يكفرون بكلّ ما يلوح فيه أثر التوحيد، ويؤمنون بكلّ ما فيه سمة الشرك، فهم لا يراعون الله حقّاً، ولا يحترمون له جانباً، فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته، ولا يراعي في حكمه لهم جانباً.^١

في تفسير كنز الدقائق عن تفسير علي بن إبراهيم عليه السلام: أخبرنا الحسين بن محمد عن معلى بن محمد، عن محمد بن جمهور، عن جعفر بن بشير، عن الحكم بن زهير، عن محمد بن حمدان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يقول: إذا ذكر الله وحده بولاية من أمر الله بولايته كفرتم. وإن يشرك به من ليست له ولاية تؤمنوا.

وفي أصول الكافي: الحسين بن محمد عن معلى بن محمد، عن علي بن أسباط، عن علي بن منصور، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن الوليد بن صبيح، عن أبي عبد الله عليه السلام: «ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده وأهل الولاية كفرتم».

وفي شرح الآيات الباهرة: عن محمد البرقي، عن ابن أبي عمير، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن الحسن بن الحسين، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَمُ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ «بأنّ لعلّي ولاية: «أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» من ليست له ولاية: «تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ» وقد ذكرنا في نظائر هذه الموارد المفسرة للآيات الشريفة بأنه تفسير للمصداق الأتمّ الأجلّ من دون اختصاص في البين.

إِتِّمَامُ الْحُجَّةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْكَفَّارِ

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾

ذمّ الكافرين وعقابهم والاستخفاف بهم في نار جهنم بلومهم وندائهم بالخذلان والفضيحة، وهذا لا يمكن إلا بإتمام الحجة عليهم في دار الدنيا بإقامة الدلائل والآيات الكونية والتشريعية لهم، فالآية الشريفة إرجاع إلى ماهي الفطرة السليمة الإنسانية من اتباع العقل والشعور، والاتعاظ والتذكّر بالآيات والعلام: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾ أيها الناس حججه على وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية ويمثل أمام عيونكم وعقولكم آياته، الدالة على كمال قدرته وتوحيده ودرايته وحكمته والكون كله آياته:

و في كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

ولا إشكال في ظهور الكلام، في أنّ الله جلّ جلاله يخاطب عموم الناس وخلقهم بإراءة الآيات، وتنزيل الرزق بحيث يتلقون الآيات الدالة على وجوده، ووحدته، وتفرّده بالقبول بعقولهم، وفطرتهم المودعة فيهم، فلا بدّ من أن يكون الظاهر من الآية الشريفة كون المراد من الآيات التكوينية، والرزق ما هو دخیل في مصالح الكون

والأبدان، والسماء المعنى المعروف العرفي، ولكون الآيات مشهودة عند كلّ أحد متلقاة بالقبول بعقولهم إن كانوا منصفين منيبين، فرّج سبحانه قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. على الآية الكريمة.

والآية مرشدة إلى أنّه تعالى هو الواحد المتفرّد بالألوهيّة والربوبيّة، والآيات شواهد قطعيّة على وجوده ووحدته، ولإله ولا معبود غيره لعدم إراءة آية أو تنزيل رزق من غيره سبحانه. وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كان لربك شريك لَأَنَّتْكَ رُسُلُهُ».

﴿وَيُنَزَّلُ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد. وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف ﴿لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ ينزل الله لنفع عباده من السماء ما هو سبب للرزق، فالتسمية من باب تسمية السبب باسم المسبّب. وقد ذكرنا المراد من الإراءة وتنزيل الرزق من السماء ما هو المعاني العرفيّة الظاهرة، ومقتضى خطاب الله جلّ جلاله لكافة خلقه ذلك.

و صيغة المضارع في الفعلين ﴿يُرِيكُمْ﴾ و ﴿يُنَزِّلُ﴾ للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما، هذا. وربّما يقال تعميماً لمعنى الآية الشريفة، وخروجاً عما هي الظاهرة فيه: إنّ كلّ شيء موجود يحتاج إلى رزق مناسب له ماديّة ومعنويّة ينزل له من منعم النعم، ويبرز من مكمنه المغيب إلى الشهادة والتحقّق والوجود، فيمكن أن يكون السماء أعمّ ممّا هو ظاهر فيه أعني المقام الأعلى والأرفع ممّا نتصوّره، والرزق أيضاً كذلك إمّا مادي وإمّا معنوي وإن كان ظاهره ما هو دخيل في مصالح الأبدان، فإراءة الآيات، وتنزيل الرزق بقدر معلوم من جهة إظهار الحُجَج والبيّنات رعاية لمصالح الأديان، وتنزيل الرزق رعاية لمصالح الأبدان وهذا تأويل في جنب ما هو الظاهر من الآية الشريفة.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ وما يتعظ بهذه الآيات وما يتفكّر في خلقها وحقيقتها والحكمة في إبداعها وإيجادها إِلَّا مَنْ يَنْيِبُ ويرجع عن تعصّبه وغروره، ويخشع

وَيُقْبَلُ بِفَوَادِهِ وَقَلْبِهِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَالْتَوَجُّهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالِاشْتِغَالُ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ حَاجِبٌ لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، مَانِعٌ عَنِ الْإِذْعَانِ الْقَلْبِيِّ، وَيُمَحِّي وَيَبْطُلُ اسْتِعْدَادُ التَّذَكُّرِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَالِاتِّبَاعِ لِلْحَقِّ. وَإِذَا أَنْابَ الْعَبْدُ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ يَزُولُ الْغَطَاءُ، وَتُظْهِرُ لَهُ سَبِيلَ النِّجَاةِ وَيُظْفِرُ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.

وَفِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي قَوْلِهِ - عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي وَيُزِيكُمُ آيَاتِهِ﴾، يَعْنِي الْأُمَمَ عليهم السلام الَّذِينَ أَخْبَرَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولُ اللَّهِ بِهِمْ.

تذكير المؤمنين بدعوة الله تعالى مخلصين له

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

الدعوة في الآية السابقة إلى النظر إلى آيات الله والتفكر في حكمة مخلوقاته وعجائبها. والدعوة موجبة لتعقل العقل، والنصفة بالاعتراف بتوحيد الله جلّ جلاله بجميع مراتب توحيده النظري والعملي، الذاتي والصفاتي، والأفعالي والعبادي. ولذا فرّع سبحانه تعالى لطفاً وعنايةً بعباده المتعقلين المتفكرين المنصفين قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ وَخُذُوهُ﴾ ووجهوا إليه بكلّ جهة غير مشركين به، مخلصين له الدين بتوحيده وحده في مقام الاعتقاد القلبي، وعبادته وحده في مقام التعبد، فليس الخطابُ للمنيبين خاصّة وإن كانوا داخلين فيه قطعاً، ومقتضى فاء التفرع والنتيجة من الآية السابقة أن يقول: «فادعوه». وضع الظاهر موضع المضمّر ليتمكّن فضل تمكّن، والإشعار بأنّه تعالى هوالمعبود بحقّ والمستحقّ لأنّ يعبد وحده. ونصب «المخلصين» على الحالية إخلاصاً غير مشوب بشيءٍ من مقاصد الدنيا وحتى الآخرة. جعلنا الله من المخلصين بفيض كمال الإخلاص.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم، فهم بشركهم يتنقرون منكم، ويكرهون الاعتراف الخالص بالتوحيد منكم، فلا تبالوا بهم، ولا تعتنوا بأقوالهم وأفعالهم، والإتيان بلوا لامتناعية مع تحقق الكراهة منهم؛ لامتناع الفطرة السليمة عن هذه الكراهة.

[في إلقاء الروح على من يشاء من عباده]

﴿١٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» «ذُو الْعَرْشِ» «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ». صفات ثلاث له تعالى. قيل: إِنَّ كَلَامَهَا خبر بعد خبر للضمير في قوله: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» وطول الفصل يبعد هذا الاحتمال، بل هو خبر للمبتدأ المقدر، والجملة مستأنفة، وهذا مبني على جواز تعدد الأخبار إذا لم تكن في معنى خبر واحد. وقرأ «رفيع» بالنصب على المدح، ويبعد هذا كون المعطوف، أي ذوالعرش بالضم. وحيث إِنَّ الآيات القادمة مسوقة للإنذار والتخويف، فالآية ممهدة لهما. «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» قالوا: إِنَّ الرفيع بمعنى الرفع، وتكون الصيغة للمبالغة، مضافة إلى مفعولها، أي هو رافع درجات الأنبياء والأولياء، وأهل الإيمان والجنة باختلاف طبقاتهم، ودرجاتهم في الإيمان والمعرفة، والعمل والطاعة. «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» أو رافع السموات السبع.

وقالوا: يكون الرفيع بمعنى المرتفع، أي هو أرفع الموجودات وأعظمها شأنًا، ارتفعت درجات كماله وجماله عن أن يشرك به كل شيء محتاج إليه وهو

مستغني عما عداه.

وقيل: معناه على الصفات، ويناسب هذا القول كون الرفيع من باب الصفة المشبهة مضافة إلى فاعلها.

قيل: إن الدرجات هي المصاعد، مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، وهي دليل على عزته وملكوته. وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنة. والكل عبارة عن رفعة شأنه، وعلو سلطانه، صاحب الدرجات الرفيعة، فهو رفيع الصفات، مرتفع كماله وجماله، ورافع درجات من يشاء من عباده بمراتب العز، ومنازل الفضل حسب شأنهم، واستحقاقهم وقابلياتهم.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ قيل: إنه مالك العرش، وخالقه وربّه، أو ذوالملك والعرش: الملك. وقد مرّ معنى العرش مفصلاً، والوصفان «رفيع الدرجات» و«ذوالعرش» للإشعار بأنه تعالى أرفع وأجلّ من أن يوصف، ويقدر ويقاس بمستوى غيره ومراتب خلقه. وأن له عرش مجتمع فيه أزمنة أمور خلقه، متعالٍ عن مستواهم، يتنزل منه الروح المناسب للإنذار.

معنى الروح

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

اختلف في معنى «الروح» فقيل: إنه بمعنى الوحي: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ والمراد الوحي؛ لأنه به يحيى القلب بالخروج من الجاهالة إلى المعرفة، والناس يحيون به من موت الضلالة والكفر كما يحيى الأبدان بالأرواح. وقيل: إن المراد منه القرآن أو الكتاب أو جبرئيل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أو النبوة وهو المعنى المناسب للآية، وهو الملقى على من يشاء من عباده الذي اصطفاه سبحانه لرسالته، و تبليغ أحكامه، ويخصّه بهذه العناية والكرامة واللطف، فالمراد

من إلقاء الرّوح من أمره على من يشاء من عباده الرّسالة التي من شأنها الإنذار.

و في تفسير كثر الدقائق: [في] تفسير علي بن إبراهيم: قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قال: روح القدس وهو خاصّ لرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام^١.

و في تفسير البرهان في الآيات الأخيرة من سورة الشعراء روايات كثيرة في الروح، و يطول بنا الكلام في نقلها جميعاً فليراجع هناك.

يوم التلاق

﴿لَيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^٢ لينذر من يلقي إليه الروح أو المُلقي وهو الله. والأوّل أظهر وأنسب، والجملة بتقدير المفعول المضاف في التقدير، أي عذاب يوم التلاق. وسقط الياء عن التلاق كالتناد للاجتماع بالكسرة الدالة عليها. وأثبت ابن كثير الياء مطلقاً ولعلّه من جهة كونه الأصل.

و هل هو يوم القيامة ويوم يلقي فيه أهل السماء وأهل الأرض؟ وعن ابن عباس ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده.

و عن قتادة يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، أو يلتقي الخصم والمخصوم، والظالم والمظلوم، أو يلتقي المرء وعمله، والحق أنّ لقاء الله في يوم القيامة، يوم المحاسبة والمساءلة، يوم تقطّع الأسباب الشاغلة، وظهور أنّ الله هو الحقّ المبين يستلزم كلّ هذه اللقاءات ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾^٣.

١. كثر الدقائق، ج ١١، ص ٣٦٨.

٢. الشعراء: ٥١ - ٥٣.

٣. هود: ٢٩.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^١.

و في تفسير البرهان: عن ابن بابويه، عن أبيه، قال: حدّثنا سعد بن عبد الله، عن القاسم بن محمّد الأصفهاني، عن سليمان بن داود، عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يوم التلاق: يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ويوم التناد، يوم ينادي أهل النار أهل الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله، ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار، ويوم الحسرة يوم يؤتى بالموت فيذبح»^٢.
و في تفسير كشف الأسرار وعدة الأبرار في النوبة الثالثة لتفسير الآيات الشريفة في المقام لطائف فارجمعها^٣.

١. الانشقاق: ٦.

٢. البرهان، ج ٤، ص ٩٤.

٣. كشف الأسرار وعدة الأبرار، ج ٨، ص ٤٧٠.

[مصائب يوم التلاق وتقطع الأسباب]

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

﴿يَوْمَ هُمْ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾. تشير الآية على مصائب يوم التلاق، ومتاعب يوم تقطع الأسباب الشاغلة، وارتفاع الأرباب الوهميّة الجاذبة إلى نفسها الحاجة عن ربّها المغفلة عن إحاطة ملك الله وتفردّه جلّ جلاله في الحكم وتوحدّه في الربوبيّة والألوهيّة.

﴿بَارِزُونَ﴾ قيل: إنهم بارزون عن بواطن قبورهم. وقيل: إنهم ظاهرون لا يسترهم شيء من الأستار كالجبل والاكمه والبناء والثياب، فإن الأرض بارزة قاع صفصف، إنهم عراة مشكوفون، كما جاء في الحديث «يحشرون عراة حفاة غرلاً».

«حفاة» جمع حافي وهو من لانعل له، «عراة» وهو جمع عاري وهو من لا لباس له. «غرلاً» وجمع أغرل وهو الأقلف الذي لم يُخْتَن. في النهاية لابن الاثير: الغرل جمع الأغرل وهو الأقلف والغرلة القلفة». وفي مجمع البحرين «عُزْلاً بتقديم العين المعجمة على الزاء المنقوطة والغرل جمع الأعزل وهو الأعلف، والغرلة مثل القلفة

لفظاً ومعنىً، والأعزل الأجرد الذي لا شعر له، ومنه الحديث: «إذا كان يوم القيامة بعث الله الناس من حفرهم عزلاً» أي جرداً لا شعر لهم وعزلاً من باب تعب إذا لم يُختن، فهو أعزل.

وقيل: إن التعبير كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^١ وقيل: إنهم بارزون ظاهرون عما انغمسوا فيه من ظلمات الأعمال، وهو أحبس النفوس، وطلبات الأجسام، وتمنيات الأبدان، معرضون عن الاشتغال بتدبير الأبدان والجسمانيات، ومتوجهون إلى عالم القيامة والروحانيات.

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ وعيد لهم في لقاءهم لله تعالى، فإنه يعلم ما فعله كل واحد منهم. فيجازي كلًّا بحسبه إن خيراً فخير. وإن شراً فشر، ولو بما لا يعلمون هم أنفسهم تفصيل ما فعلوه، ولكنه لا يخفى على الله منهم شيء. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْكَافُ عَنْهُمْ خَافِئَةً﴾^٢ والله تعالى لا يخفى عليه شيء منهم في جميع الأحوال في الدنيا والآخرة ولكنهم كانوا متوهمين في الدنيا أنهم مستترون بالحيطان والحجب المتنوعة، وأن الله لا يراهم، وتخفى عليه أعمالهم ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣ والله تعالى يذكر هذا اليوم، وأنه يوم لا مجال لمثل هذا التوهم. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

استفهام تقرير من ناحيته سبحانه وتعالى، يبين عظمة اليوم وحقيقته، يوم ظهور الله على خلقه، وظهور ملكه وسيطرته على كل شيء، يوم التلاق، يوم حضور الأولين والآخرى، وانكشاف تقطع كل شيء دون عظمته بحيث لا ملك إلا ملكه، ولا سلطان ولا سطوة إلا له.

١. الطارق: ٩.

٢. الحاقة: ١٨.

٣. فصلت: ٢٢.

﴿الوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ واحدٌ قهر كلَّ شيء، بملكه وتسلّطه عليه، ولا حول ولا قوّة إلاّ به، فله الملك وحده وهو الواحد القهّار.

هذا خطاب لاستيقاظ الضمائر الصحيحة والأحاسيس المنصفة في هذه النشأة، وفي يومنا هذا في الدنيا خطاب لكلّ عاقل منصف متفكّر في عاقبته بعد الموت، ويوم القيامة ومثوله أمام محكمة العدل والمسألة عند الحساب والميزان، فلا نحتاج إلى فرض كون الخطاب من الله تعالى في يوم القيامة عند هلاك كلّ من في السماوات، ومن في الأرض فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ حتى يستشكل بضعف هذا الوجه بأنّه نداء يحصل يوم التلاق والبروز، وجزاء كلّ نفسٍ بما كسبت، والناس في ذلك الوقت أحياء شاهدين شاعرين كلّ حقيقة، وبأنّ نداء المعدومين والهلكى لا يترتّب عليه فائدة حتى يصدر من ساحة البارئ عزّ اسمه، خاشاه عن اللغو والباطل، وصدور مالا فائدة فيه، فهذا النداء في الحقيقة لسان حال جميع ما سوى الله تعالى وتخصيصه بيوم القيامة يوم التلاق والبروز؛ لكون اليوم يوم الكشف والشهود والعيان، يوم بروز جميع الحقائق، وكشف كلّ ما هو مخفيّ ومستور بحيث لا يبقى لأحد شكّ وريب وشبهة وخفاء وستر وحجاب.

و في التفاسير الروائية عن كتاب التوحيد: قال حدّثنا محمد بن بكران النقّاش رحمته الله بالكوفة، قال: حدّثنا أحمد بن محمد الهمداني قال: حدّثنا عليّ بن الحسن بن عليّ بن فضال. عن أبيه، عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في حديث تفسير حروف العجم، قال: «فالميم ملك الله يوم لا مال لك غيره، ويقول الله عزّ وجلّ ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثمّ ينطلق أرواح أنبيائه ورسله وحججه، فيقولون لله الواحد القهّار، فيقول جلّ جلاله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.»

و في نهج البلاغة: «وإنَّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لاشيء معه كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها بلاوقت ولا مكان ولا حين ولا زمان. عدمت عند ذلك الآجال والأوقات. وزالت السَّنون والسَّاعات، فلا شيء إلاَّ الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور، بلاقدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها».^١

ايوم جزاء كل نفس بما كسبت ولا ظلم في ذلك اليوم]

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

صفة أخرى ليوم التلاق والحشر والبروز، يوم جزاء كل نفس بما كسبت عقيب وعيد الآية السابقة ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولكن الظلم مأمون؛ لأن الله ﴿لَيْسَ بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل يُثَاب كل عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشرّ يجزى جزاءه، وهذا الجزاء خيراً أو شراً بما كسبت كل نفس، ﴿وَلَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ نكرة في سياق النفي مفيدة للمعموم، لابتخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسناً، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه، أو يضاعف على إثمه.

في مجمع البيان: في الحديث «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَعِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْضَاهُ مِنْهُ» ثم تلا هذه الآية ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي لا ظلم لأحد على أحد، ولا ينقص من ثواب أحد، ولا يزداد في عقاب أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله محاسبة

واحد عن محاسبة غيره.^١

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

ذو سرعة في محاسبة يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، لا يشغله شيء عن شيء، ولا محاسبة واحد عن محاسبة غيره، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، بل العباد يحشرون بأعمالهم المضبوطة المكتوبة، بل الحاصلة بما كسبت أنفسهم، ولا حاجة إلى الحساب إلا تعريف ذوي الأعمال وإعلامهم بأعمالهم جزائها وعقابها.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي مَقْدَارِ لَمَحِ الْبَصَرِ». وفي البخار عن النهج: سئل عنه، كيف يُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟ فقال: «كما يرزقهم على كثرتهم»، قيل: فكيف يحسابهم ولا يرونه؟ قال: «كما يرزقهم ولا يرونه».^٢

١. مجمع البيان، ج ٧-٨، ص ٥١٨ (طبعة صيدا).

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٧١، ح ٣٧.

في بيان يوم الآزفة ومصائبه الهائلة]

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

آية واحدة عند الكوفيين، واثنان عند غيرهم، عدّوا «كاظمين» راس آية. قد ذكرنا في الآية السابقة أنها تشير على مصائب يوم التلاق، ومتاعب يوم تقطع الأسباب، وأعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة تعطلت منها المسامع، وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المشيب ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ وخوفهم ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ القيامة، والآزفة: الدانية والقريبة، والأزوف القرب. أزف الأمرُ إذادنا وقته، ويقال: أزف الشَّخص إذا قرب وضاق وقته. ففي الأصل اسم فاعل نقلت منه، وجعلت اسماً للقيامة، لقربها بالإضافة إلى ما مضى من مدّة الدنيا، أو لما بقي وهو آت، وكلّ آت قريب. ويجوز كونها باقية على الأصل الوصفي صفة للمحذوف، أي الساعة الآزفة، وقدّر بعض أهل التفسير والأدب الموصوفة الخطّة الأزفة بضمّ الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وهي القصّة والذاهية العظيمة التي تستحقّ أن تخطّ وتكتب لغرابتها، وهي مشارفتهم التار ودخولهم فيها. وقيل: يوم الآزفة يوم المنيّة وحضور الأجل، وربّما رجّح هذا المعنى بأنّه أبعد

من التكرار وأنسب بما بعده، ووصف القرب أظهر. ولا يخفى أَنَّ الآزفة لَمَّا كانت مؤنثاً فلا بدَّ من أن تكون صفة للموصوفة المؤنث.

وقال القفال: أسماء القيامة تجري على التانيث كالطامة والحاقة ونحوها، كأنها يرجع معناها إلى الداهية. والمراد من الأسماء المشتقة الدالة على الوصف. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآزفة، والقلوب مبتدأ ولَدَى الحناجر خبره، وكاظمين حال من أصحاب القلوب.

القلوبُ جمع القلب وهو العضو المعلوم في البدن، والحناجر جمع حنجرة أو حُنْجور كحلقوم لفظاً ومعنى، وقال الراغب: هي رأس الغلصمة من خارج، وهي لحمة بين الرأس والعنق. والكلام كناية عن شدة الخوف، أو فرط التألم، بل يجوز كونها حقيقة وتكويناً ببلوغ قلوب الكفار من مخافة عقاب الله حناجرهم يوم القيامة شخصت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم كاظميها، يرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم فلا تعود فيترَوِّحوا، ولا تخرج من أبدانهم وحلوقهم فيموتوا ويستريحوا. في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام يقول فيه:

واعلم يا ابن آدم إنَّ وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة. وذلك ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ﴾.

«كاظمين» منصوب على الحالية، حال من أصحاب القلوب على المعنى، فإنَّ الكاظمين هم أصحاب القلوب لا في القلوب، وذكرها يدلُّ على ذكر أصحابها، ولهذا جيء بكاظمين جمع سلامة، لا كاظمة حتى تكون حالاً عن نفس القلوب، والمعنى كأنه قيل: إذ قلوبهم لدى الحناجر كاظمين عليها من كَظَمَ القربة: إذا ملأها وسدَّ فاهها، فكما أنَّ كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها عليه، لئلا يخرج امتلاء كذاهم مغومون مكروبون ممتلئون عمّا قد أطبقوا أفواههم على قلوبهم ممسكون أنفسهم على قلوبهم؛ لئلا يخرج مع النفس، وهذه مبالغة عظيمة.

ويمكن أن يكون كاظمين حالاً من القلوب باعتبار إسناد ما يسند إلى العقلاء إليها فجمعت جمع نحو ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ والمعنى أنَّ القلوب كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، والكظم شدة الاغتمام، والكاظم المتحمّل الساكت حال امتلائه غمّاً وغيظاً.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾

الحميم: القريب المشفق من احتّم فلانٌ لفلانٍ احتدّ، فكأنّه يحتدّ حماية لقريبه إشفاقاً له. وخاصّة الرجل حامته. فلذا فسرّ الحميم بالصديق. والمقصود أنّه ما للظالمين أنفسهم بالشرك، والكافرين بالله يومئذ من حميم يحمّ لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله.

﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي يشفع ويطاع شفاعته من الله جلّ جلاله، فالجمله في محلّ جرّ معطوفاً، وظهور الكلام نفى الصفة والموصوف وانضمام ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ النكرة الواقعة في سياق النفي إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ لاقامة انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة. إزالة لتوهم وجود الموصوف حيث جعل انتفاءه أمراً مسلماً قطعياً. والشاهد ينبغي أن يكون أوضح من المشهود. ونفي الموصوف أحكم من نفى الصفة.

وفي تفسير كتر الدقائق:

وفي كتاب التوحيد: حدّثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني، قال حدّثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن محمّد بن أبي عمير، عن موسى بن جعفر عليه السلام: «يا أبا أحمد، ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساء له ذلك وندم عليه». وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «كفى بالندم توبَةً» وقال عليه السلام: «من سرّته حسنته وساء له سيّنته فهو مؤمن، فأما من لم يندم على ذنب يرتكبه، فليس بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة، وكان ظالماً، والله تعالى يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾».

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ النَّظْرَةَ الْخَائِنَةَ

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

الخائنة - مصدر مثل الخيانة - كالكاذبة، واللاغية بمعنى الكذب واللغو وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه، والمعنى يعلم خيانة الأعين إلى غير ما يجوز النظر إليه على وجه الحرمة والسرقة. ويمكن أن يكون الخائنة وصفاً لموصوف مقدّر، أى النظرة الخائنة، وقيل: هو وصف مضاف إلى موصوفه، أي الأعين الخائنة، كما في قوله: وإن سبقت كرام الناس فاسقين، أي الناس الكرام، ولا يناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾؛ لأنّ الملائمة واجبة الرعاية في علم البيان، وملائم الأعين الخائنة الصدور المخفية. مضافاً إلى أنّه يستلزم كون يعلم بمعنى يعرف ولا ضرورة.

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي تضره، لا يخفى عليه شيء من مضمرات القلوب، فالله سبحانه عالم ﴿لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^١ فهو أعلم بأفعال الجوارح والقلوب كلّها وإن أخفاها خائنة الأعين وأضرها

الصدور، والذي يعلم نظارة الأعين خيانة أو أمانة، وما تخفيه الصدور شرّاً أو خيراً فهو سريع الحساب، ولا يحتاج إلى رويّة وفكر وتروّ، ولا شيء ممّا يحتاجه المحاسبون، فالآية مناسبة بما تقدّم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَاللَّهُ الحاكم الذي يقضي بالحقّ، والمحاسب الذي لا يعزب عنه شيء في العلم والحساب. إلى هذا الحدّ ينبغي أن يعتقد العبد بأنّ الله يراه، وأن يكون خوف المذنب منه شديداً جداً.

وفي تفسيري نود الثقلين وكز الدقائق: في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى عبد الرحمن بن سلمة الحريري، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ فقال: «ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظر، فذلك خائنة الأعين».

و في مجمع البيان:

«و في الخبر أنّ النظرة الأولى لك والثانية عليك»، فعلى هذا تكون الثانية محرّمة، فهي المراد بخائنة الأعين.

و فيه: قال عليه السلام لأصحابه يوم فتح مكّة وقد جاء عثمانُ بعبد الله بن سعد بن أبي سرح يستأمنه منه، وكان عليه السلام قبل ذلك أهدرد مه وأمر بقتله، فلما رأى عثمان من ردّه وسكت طويلاً ليقتله بعض المؤمنين، ثمّ آمنه بعد تردّد المسألة من عثمان: «أما كان منكم رجل رشيد يقوم إلى هذا ليقتله»؟ فقال له عبّاد بن بشير: يا رسول الله، إنّ عيني مازالت في عينك انتظاراً أن تومئ إليّ فأقتله.

فقال عليه السلام: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَكُونُ لَهُمْ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ»^١.

و في تفسير الدر المنثور:

أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة، آمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامراتين، وقال: «اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة» منهم: عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فاخْتَبَأَ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به، فقال: يا رسول الله، بايع عبدالله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى يبايعه ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله»، فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هَلَا أومأت إلينا بعينك، قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»^١

وفي نهج البلاغة: «قسّم أرزاقهم، وأحصى آثارهم، وأعمالهم، وعدّد أنفاسهم وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضمير»^٢.
وفي تفسير اثني عشري عن كتاب المحاسن: «ما اعتصم أحد بمثل ما اعتصم بغضّ البصر، فإنّ البصر لا يَغُضُّ عن محارم الله إلا وقد سبق إلى قلبه مشاهدة العصمة والجلال»^٣.

١. الذر المتورّد، ج ٥، ص ٣٤٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٩٠.

٣. الاثنا عشري، ج ١١، ص ٢٩٤.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِالْحَقِّ

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ تقديم المسند إليه للتقوي والعدول عَنِ المضمَر إلى المظهر، والإتيان بلفظ الجلالة لإرادة الذات المستجمعة لتلك الصفات. ويمكن أن يكون تقديم المسند للتقوي والحصر معاً، فاللازم الضَّروري في الألوهية قضاء الله في عباده وبينهم، وهو سبحانه يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة، وكلّ مدعوٍّ من دونه لا يقضي بشيء؛ لأنّه مملوك لا يملك شيئاً. فالله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يقضي ويفصل بين الخلائق بالحق لا بالباطل، فيوصل كلّ ذي حقٍّ إلى حقّه، منزّه عن الجهل والعجز، ومستغن عن الظلم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

كلّ مدعوٍّ من دون الله لا يقضي بشيء، فالأوثان والآلهة التي يعبدونها هؤلاء المشركون لا يقضون بشيء؛ لأنّها لا تعلم شيئاً ولا تقدر على شيء فهو تهكُّمٌ بآلهتهم التي لا تملك شيئاً. فادعوا واعبدوا الذي يملك كلّ شيء، ويقدر على كلّ شيء، ولا يخفى عليه من أعمالكم وهو يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور فيجزئ

محسنكم بالإحسان والمسييء بالإساءة لا مالا يقدر على شيء، ولا يعلم شيئاً،
 فيعرف المحسن من المسييء، فيثبت المحسن، ويعاقب المسييء.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سميع لما تنطق به ألسنتكم، بصير بما تفعلون،
 محيط بكل ذلك لذاته، محصيه عليكم ليُجازى جزاءه يوم الجزاء.

[في سنة الله تعالى بأخذ المذنبين بذنوبهم]

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

ترغيب وتحريض على النظر إلى مآل حال الأمم السابقة المكذّبين للرسل والأنبياء، والعاقلة من اعتبر بغيره، فإنّ الماضين من الكفار كانوا أشدّ قوّة من هؤلاء الحاضرين من الكفار. فالآيات موعظة لهم بالرجوع إلى آثار الغابرين وقصصهم للنظر والاعتبار؛ لأنّ في قصصهم عبرة لأولى الألباب، فلمهم أن ينظروا إلى الأحوال الغابرة ويعتبروا بها، ويعلموا أنّ الله سبحانه لا تعجزه قوّة الأقوياء، واستكبار المستكبرين، ومكر الماكرين.

وقال أمير المؤمنين (عليه الصّلاة والسّلام): «إنّ لكم في القرون السالفة لعبرة. أين العمالقة وأبناء العمالقة؟! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ وأين أصحاب مدائن الرّس الذين قتلوا النّبيين، وأطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟»^١

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ استفهام إنكاري، أي فليسيروا هؤلاء الذين أرسلناك إليهم، ولينظروا نظر تَفَكَّر واعتبار كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم الماضية كانوا هم أشدّ منهم قوّة وآثاراً في الأرض.

الإتيان بالضمير المنفصل تأكيد للضمير المتصل قبله. وجوّز كونه ضمير فصل. وقالوا بلزوم وقوع ضمير الفصل بين المعرفتين. وأجابوا بأنّ أفعال التفصيل الواقع بعده من الداخلة على المفضّل عليه مشابهة للمعرفة لفظاً في عدم دخول «أل» عليه ومعنى؛ لأنّ المراد به الأفضل أفضليّة معيّنة، مع أنّ الجرجاني أجاز وقوع المضارع بعد هذا الضمير كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُهُ﴾ والفعل في حكم النكرة فلا يلزم وقوع الضمير بين المعرفتين.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾ أي قدرةً وتمكّناً وسلطة وآثاراً عطف على «قوّة» أي وأشدّ آثاراً في الأرض كالدائن الحصينة، والحصون المنيعه، والقصور العالية المشيّدة، وعددهم، وعدّتهم، وشوكتهم، وعزّتهم في سيرهم وذهابهم وإيابهم في أرجاء هذه الأرض البسيطة للشوكة والعظمة والسلطنة، وطلب الدنيا، وهم أشدّ من هؤلاء بطشاً، وأبقى في الأرض آثاراً. وقال مولانا أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام): «اعتبروا بما قدرايتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم، وزالت أبصارهم وأسماعهم، وذهب شرفهم وعزّهم، وانقطع سرورهم ونعيمهم»^١.
﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾

أهلكهم الله بسبب ذنوبهم وآثامهم بضروب الهلاك معجلاً في الدنيا، فلم تنفعهم شدّة قواهم وبطشهم، فأبادهم الله جميعاً، وصارت مساكنهم وبلادهم خاويةً منهم بما ظلموا.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أي دافع يدفع عنهم عذابه، ويمنع من نزوله بهم. والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. وقال مولانا أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام): «اعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله، وصولاته، وقائعه، ومثلاته».^١

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعَذِّبُ الْكَافِرِينَ بَعْدَ تَكْذِيبِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِ

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

تعليل لأخذهم وإهلاكهم من الله تعالى بأنه بسبب كفرهم بالرسول والآيات البينات، والمعجزات الباهرات، والدلالات الظاهرات، وهم قد كفروا وأنكروا الرسالات، وجحدوا توحيد الله، وأبوا أن يطيعوا الله فأخذهم الله ﴿إِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فأخذهم وأهلكهم الله عقوبةً على كفرهم. إنه قويٌّ متمكِّن ممَّا يريدُه عزَّ وجلَّ غايةَ التمكن، ذو قوَّة لا يقهره شيء، ولا يغلبه ولا يعجزه شيء أرادَه. ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يعتدُّ بعقاب عند عقابه سبحانه، وهذه مبالغة في التحذير والتخويف.

إرسال موسى بالآيات والمعجزات المبين^١

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

في الآية تسليية لرسولنا الأعظم ﷺ حيث سَلَّى الله الرسول عمَّا كان يلقي من مشركي قومه من قريش بذكر الكفار الذين كَذَّبُوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم والتفكر في أنظارهم في الآيات السابقة. وسَلَّاهُ أيضاً في هذه الآيات بذكر موسى ﷺ وأَنَّهُ مع قُوَّة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون، فكابروه وكَذَّبُوهُ وقالوا: ساحر كَذَّاب، بل همَّوا بقتل موسى، وقال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ اللام وقد للتحقيق إشارة إلى أَنَّ إرسال موسى ﷺ كان مقروناً بالآيات والحجج والدلالات التشريعية والتكوينية كقلب العصا حيةً، وفَلَقِي البحر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ بعثناه بآياتنا من الحجج والدلالات، ولعلَّها الآيات التسع التي كرَّرت الإشارة إليها في القرآن الكريم ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾^١ ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بقدرة ظاهرة وسلطة باهرة كالمعجزات التكوينية الصَّادرة منه ﷺ، فالعطف إمَّا لتغاير الوصفين، أو لإفراد بعض المعجزات، كالعصا تفخيماً لشأنه.

[في قول فرعون وهامان وقارون لموسى]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

أرسل موسى ﷺ إلى كافة قومه إلا أنه خص فرعون؛ لأنه كان رئيس القبط ومليكمهم وهارون وزيره ومنشأ ضلاله وفتنته، وقارون صاحب الخزائن المليئة الثري المتكبر من طغاة بني إسرائيل، والمارقين من دعوة موسى ﷺ، فالثلاثة أصول ينتهي إليهم كل فساد وفتنة في الطائفتين، القبط وبني إسرائيل، فقالوا: ﴿سَاحِرٌ حَمَوه ومقلب للواقع بسحر العصا، فيرى الناظر أنهاحية تسعى، وكذاب في ادعائه الرسالة والكذب على الله، والكذاب الذي عادته الكذب مرة بعد أخرى، ولم يقولوا: سحّار؛ لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر مثل سحرتهم، بل سحرتهم أسحر منه، كما قالوا: ﴿يَأْتِيكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ﴾ وسحرة فرعون كانوا محترفين في السحر، مشغولين به، وفي هذا كما أشرنا في أول الآية تسليّة لرسول الله ﷺ، وبيان لعاقبة من هو أشدّ الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً.

[حكم فرعون لقتل أولاد المؤمنين واستحياء نسائهم]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ فلَمَّا جاء هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحق من عندنا وذلك مجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته مع إقامة الحجة عليهم بالدلائل والحجج بأن الله ابتعثه إليهم بالدعوة إلى ذلك.

و هذه إحالة فطرة كل إنسان منصف سليم ليروا مقايضة بين مجيء موسى عليه السلام بالحق من عند الله، وبالدعوة الإلهية التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وبين ما قابلوه من كيدهم وحتى همّهم بقتل موسى، وكان الواجب عليهم قبول دعوته، وعدم ردّه؛ لأنّه كان حقاً وجائياً من عند الله.

﴿وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾

قالوا غيظاً وحنقاً وعجزاً عن معارضة موسى، وأمروا بقتل الذكور من قوم موسى لئلا يكثر قومه ولا يتقوى بهم، سواء كان الأنباء من بني إسرائيل أو من غيرهم، وفي تعبير «مَعَ» في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾ دون «آمَنُوا بِهِ» إشارة إلى مظاهرة المؤمنين لموسى عليه السلام، والسياق مشعر بأنّ قارون من القائلين لهذا القول، ومن

المنحرفين عن موسى ﷺ مع أنه كان من بني إسرائيل، ووافق فرعون وهامان وملاههم؛ لعداوته وبغضه لموسى والمؤمنين من قومه.

﴿وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ إمّا من الحياة، أي استبقوا نساءهم للخدمة والاسترقاق، حيث إنّ استحياء النساء واقع في قبال قتل أبناء المؤمنين بموسى الظاهرين له، فلا بدّ من أن يكون الإبقاء على حياتهم لأجل الاستخدام والاسترقاق. أو من الحياء والعفة، فالمعنى طلب السلب، أي يطلبون الحياء والعفة أخذوا لهم للمتعة الجنسيّة، وهذا أقصى إهانة وتذليل لبني إسرائيل، ومن آمن به ﷺ.

وفي الجمع: وهذا القتل غير القتل الأوّل؛ لأنّه أمر بالقتل الأوّل ثلثاً ينشأ منهم من يزول ملكه على يده ثمّ ترك ذلك، فلمّا ظهر موسى عاد إلى تلك العادة، فمنعهم الله عنه بإرسال الدّم، وَ الضفادع، والطوفان، والجراد كما مضى ذكر ذلك ثمّ أخبر سبحانه بأنّ ما فعله من قتل الرجال، واستحياء النساء لم ينفعه بقوله:

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم، باشرُوا قتلهم أولاً، فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوا ظهوره، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني، وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بعث موسى وأحسّ بأنّه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرة موسى وما علم أنّ كيده ضائع في الكرّتين جميعاً، وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلّا في جور عن سبيل الحقّ، وصدّ عن قصد الحجّة، وأخذ على غير هدى، ووضع الظاهر موضع المضمر، وما قال: كيدهم للدلالة على العلة تعميماً للحكم.

[في مخادعة فرعون بادّعه أنّ موسى يبذل دينكم]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

وقال فرعون لملائته وقومه: «ذروني» واتركوني أقتل موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الذي يزعم أنّه أرسله إلينا فيمنعه منّا.

دلالة في الآية أنّ فرعون همّ بقتل موسى ﷺ، وأشار خاصّة قومه بأن لا يقتله؛ لأنّه في نظرهم أقلّ من ذلك أهميّة وأضعف شأنًا، ولا يرونه إلّا مثل بعض السحرة، ومثله لا يصاوله إلّا ساحراً مثله.

وقتله يدخل الشبهة على الناس بعجز القوم عن معارضته، ومقابلة حجّته بالحجّة، و لكنّهم في بواطن نفوسهم كانوا خائفين من رسالة موسى ورّبّه إمّا مصدّقين له أو محتملين لصدقه، ولذا أشار خاصّة قومه: بأن لا يقتل موسى خوفاً من أن يدعو ربّه فيهلك، فلذلك قال فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ كما تقولون: وليستعن به في دفع القتل عنه، فإنّه لا يجيء من دعائه بشيء، قال هذا تجبراً وعتوّاً وجرأة على الله، وكان ما في نفسه من الخوف وهول الفرع أكثر وأكثر ممّا في نفوس قومه.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

دينكم إن لم أقتله؛ لتوجّه الناس بحسب فطهرتم إلى التوحيد والحقّ، واتّباعهم لموسى عليه السلام، فخاف فرعون أن يزول اعتقاد قومه بالهَيْتَة وعبادته وعبادة الأصنام.

﴿أَوْ أَنْ يُظْهَرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ ولو لم يبدّل دينكم لوفائكم واتّباعكم لي ولكنه مع مؤمنيه يُظهر في أرضكم مصرا الفساد والتفرقة والاختلاف والتفان والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعلّط المزارع والمكاسب والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً.

قرأ الكوفيّون: عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب ﴿أَوْ أَنْ﴾ بالف قبل الواو بترديد الخوف بين أمرين: تبديل الدين، أو ظهور الفساد، وقرأ باقي السبعة: «وَأَنْ» بانتصاب الخوف عليهما معاً. وقرأ أنس بن مالك، وابن المسيّب، ومجاهد، وقتادة وأبورجاء، والحسن، والجدري، ونافع، وأبو عمرو، وحفص ﴿يُظْهَرُ﴾ من أظهر مبنياً للفاعل والفساد نصباً. وقرأ باقي السبعة، والأعرج، والأعمش، وابن وثّاب، عيسى، ﴿يُظْهَرُ﴾ من ظهر مبنياً للفاعل والفساد نصباً. وقرأ مجاهد ﴿يُظْهَرُ﴾ بشدّ الظاء والهاء الفساد رفعاً. وقرأ زيد بن عليّ ﴿يُظْهَرُ﴾ بضمّ الياء وفتح الهاء مبنياً للمفعول الفساد رفعاً.

و نقول: إنّ ظهور قراءة المصاحف الموجودة ﴿أَوْ أَنْ يُظْهَرُ﴾ في لزوم أحد الأمرين بنحو منع الخلوّ عنهما، وعدم المانع من الجمع بينهما. أو أن يكون «أَوْ» مستعملة بمعنى الواو كما في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي و يزيدون أو بل يزيدون، و﴿يُظْهَرُ﴾ بضمّ الياء أشبه بما قبله وأنسب بالمقام؛ لأنّ قبله ﴿يُبَدِّلُ﴾ أسند الفعل إلى موسى عليه السلام.

وفي تفسير البرهان: عن ابن بابويه، قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدّثنا محمد بن الحسن الصفّار، قال، حدّثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب عن عليّ بن أسباط، عن إسماعيل بن منصور أو زياد، عن رجل، عن

أبي عبد الله عليه السلام في قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ من كان يمنعه؟ قال منعتُه رُشدته، ولا يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلا أولاد الزنى».

أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه في كامل الزيارات: عن محمد بن جعفر القرشي الرزاز، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن علي بن أسباط، عن إسماعيل بن زياد، عن يعقوب خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فقيل: من كان يمنعه؟ قال: «كان لرُشدته؛ لأنّ الأنبياء والحجج لا يقتلها إلا أولاد البغايا».

العياشي: عن يونس بن ظبيان، قال: قال: «إنّ موسى وهرون حين دخلا على فرعون لم يكن في جلسائه يومئذ ولد سفاح، كانوا ولد نكاح كلّهم، ولو كان فيهم ولد سفاح لأمر بقتلها، فقالوا: ارجه وأخاه، وأمره بالتأني والنظر» ثمّ وضع يده على صدره.

قال: «وكذلك نحن لا ينزع إلينا إلّا كلّ خبيث الولادة».

استعاذ موسى بربه من كل متكبر

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ﴾

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قابله وملئه بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي﴾ صدر الكلام للتأكيد والإشعار بأنَّ السبب المؤكّد في دفع الشرِّ هو العياذ بالله، والعياذ الاعتصام بالشيء من عارض الشرِّ، عذت بالله من الشيطان، واعتصمت منه بمعنى واحد. «عُذْتُ» استجرت واعتصمت أيها القوم بربي وربكم الذي خلقتني وخلقكم من شرِّ كلِّ متكبر على الله. تكبر عن توحيده والإقرار بألوهيته، وتجبر عن طاعته، والإنقياد له لا يؤمن ولا يصدّق بيوم الحساب والمجازاة، يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بما أساء، وقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه حصٌّ وبعث لهم على الاقتداء به في العيادة بالله، والاعتصام بالتوكّل عليه، والإتيان بخصوص لفظ الربِّ؛ لأنَّ المطلوب هو التربية والحفظ والرعاية، فكأنَّ الاستعاذة بالله تعالى الذي هو ربُّ كلِّ شيء وصائنه هو الموجب للصون عن كلّ الآفات والمخافات، عناية لله للعائد المستعيز به، والجمع بين ربي وربكم مقابلة أيضاً لقول فرعون، ﴿فَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ حيث حصّ ربوبيته تعالى بموسى، فأشار عليه

يقوله: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إلى أنّه تعالى ربّهم كما هو ربّه، نافذ حكمه فيهم، كما هو نافذ فيه، فله أن يقّي عائذه من شرّهم وقذوقى.

و إنّما خصّ موسى ﷺ الاستعاذة باللّهِ ممّن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأنّ من لم يؤمن بيوم الحساب مصدّقاً لم يكن للثواب على الإحسان راجياً، ولا للعقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفاً. ولذلك كان استجارته من هذا الصّنف من الناس خاصّة.

فظهر لطف تعبير موسى ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أنّ الموجب للإقدام على إيذاء الناس وقتل الأبرياء منهم أمران، تكبر الإنسان وقساوة قلبه، وإنكاره للبعث ومحاسبة يوم الحساب. فالتكبر القاسي ربّما يحمله طبعه على إيذاء الناس، إلّا أنّه إذا كان مقرّاً بيوم الحساب فهذا الإقرار يوجب خوفه من الحساب، ومنعه من الجري على دعا إليه تكبره، وإذالم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة فالطبيعة داعية على الإيذاء، والمانع وهو الخوف من الحساب والسؤال زائل، فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء وارتكاب المآثم، وسفك الدّماء.

امؤمن آل فرعون يمنع عن قتل موسى ا

﴿١٨﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

مفتتح قصّة المؤمن الذي سمّي السّورة المباركة بعنوانه دلالة على علوّ شأنه وارتفاع كعبه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ واختلفوا فيه، فقال بعضهم: كان من قوم فرعون وقد آمن بموسى وسرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه. وقال بعضهم: هو ابن عمّ فرعون، أو ابن خالته، وفي الحديث: «إنّه ابن خاله». ويقال: هو الذي نجامع موسى وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى. وقيل: إنّه كان وليّ عهده، وصاحب شرطته، وكان اسمه حبيب. وقيل: حزيل، أو خريل، أو خرقل أو سمعان. وقال بعض: إنّه من القبط. وقال بعض: إنّه غريبٌ لامن بني إسرائيل ولا من القبط. وقال آخرون: كان الرجل لا من إسرائيل ولا من القبط. وقال آخرون: كان الرجل إسرائيليّاً يكتُمُ إيمانه. والأوّل أولى؛ لأنّ لفظ الأوّل يقع على قرابة الرجل وعشيرته، ولأنّ الرجل يكرّر نداء فرعون وقومه بلفظة «يا قومي»؛ ولأنّ إصغاء فرعون كلامه

واستماعه قوله وتوقفه عن قتل موسى عند نهيه عن قتله، وقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ شواهد على كون الرجل من آل فرعون، ولو كان الرجل إسرائيلياً لما كان فرعون يستنصحه ويستنصح غيره من بنى إسرائيل؛ لاعتداد، إياهم أعداءً له، فكيف بقوله عن قتل موسى لو وجد إليه سبيلاً. ولكنه لما كان من ملاً قومه استمع قوله، وكفّ عمّا هم به موسى. فعلى هذا ينبغى الوقف على قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ إذا أراد القارئ الوقف. ولو كان الرجل إسرائيلياً يكتُم إيمانه عن آل فرعون، فلزم الوقف عند قوله: ﴿مُؤْمِنٌ﴾ ويكون قوله: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿يَكْتُمُ﴾ أى يكتُم إيمانه من آل فرعون.

والأول أظهر وأوفق في أقوال المفسرين وقواعدهم ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ في صدره على وجه التقيّة.

و في المجمع: قال أبو عبد الله عليه السلام:

«التقية من ديني ودين آبائي، ولادين لمن لا تقيّة له»، والتقية ترس الله في الأرض؛ لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل. قال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى، فقال: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

و في تفسير الفخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين، ومؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، والثالث: عليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم».

و في تفسير روح البيان للحقيّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله «سباق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين. حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب يس، وعليّ بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) وهو عليه السلام أفضلهم». كما في إنسان العيون نقلاً عن العراقيّ.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أقتلون أيها القوم موسى ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي لأن يقول ربِّي الله وحده لا شريك له، والحصر استفاد من تعريف طرفي الجملة، مثل: صدّقي زيد لا غير. والاستفهام استفهام إنكار واستنكار أن يقتل الرجل من أجل الإيمان ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ إنكار عظيم وتبكيّت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محترمة، وما لكم علّة قطّ في ارتكابها إلا كلمة الحقّ التي نطق بها وهي قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وقد أحضر لكم بيّنات عدّة واضحات من عند من نسب إليه الرّبوبيّة، وهو ربّكم لا ربّه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين جماحهم بذلك، ويكسر من سؤرّتهم.

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ في محلّ النصب على الحاليّة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من الآيات الواضحات التي يدركها حواسّكم الظاهرة، وتدلّ على صدقه كاليد والعصا، وهي من ربّكم لا من المخترعات المبتدعات من قبله.

ثمّ يعطف الكلام على وجه التلطّف والاستدراج البديعي لا الشكّ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فيقول: ﴿وَإِنْ يَكُ﴾ موسى كاذباً في قتله: إنّ الله أرسله إليكم يأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه، فإنّما إثم كذبه، وباله عليه دونكم.

﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ في قتله ذلك، ﴿يُصِيبْكُمْ﴾ بعض الذي وعدكم من العقوبة على ما أنتم عليه من الضلال والشرك وعبادة الأصنام فلا حاجة إلى قتله، فتزيدوا ربّكم بذلك إلى سخطه عليكم بكفركم سخطاً، والسرّ في إصابة بعض ما يعدّهم من باب المداراة والإنصاف والمناصحة، فهذا أقرب في تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له، وقبولهم منه، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا الباب أيضاً.

و لعلَّ السرَّ في إصابة بعض ما أوعدهم لعدم مجال في الدنيا لإصابة جميع ما أوعدهم، وهذه مجاملة معهم أيضاً في الدنيا دون الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي وَلَا يُوَفِّقُ لِلْحَقِّ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ وَمَتَعَدٌّ إِلَى فَعَلٍ مَا لَيْسَ لَهُ فَعْلُهُ مِنَ الشَّرْكِ، وَقَتْلِ النَّفُوسِ، وَسْفَكِ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَكَذَّابٍ يَكْذِبُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ عَلَيْهِ الْبَاطِلَ وَغَيْرَ الْحَقِّ.

فَإِنْ كَانَ مُوسَى - عِيَاذاً بِاللَّهِ - مُسْرِفًا كَذَّابًا لَمَّا هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى الْبَيِّنَاتِ، وَلَمَّا عَضَّدَهُ بِتِلْكَ الْمَعْجَزَاتِ. وَهَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي الْكَلَامِ. وَثَانِي الْوَجْهَيْنِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُ، فَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى قَتْلِهِ، وَلَعَلَّهُ أَرَاهُمْ هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ عَاكِفٌ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ لِتَلْوِينِ شَكِيمَتِهِمْ، وَقَدْ عَرَّضَ بِهِ لِفِرْعَوْنَ وَلَمَحَّ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مُسْرِفٌ حَيْثُ قَتَلَ الْأَنْبَاءَ الْأَبْرِيَاءَ، وَكَذَّابٌ ادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ سَبِيلَ الصَّوَابِ وَمِنْهَا جِئَ النَّجَاةُ، بَلْ يَفْضَحُهُ وَيَهْدِمُ أَمْرَهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ مَبْتَدَأُ كَلَامٍ مِنَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ.

و لتنبِّركَ بذكر الروايات الواردة في الباب

ففي تفسير البرهان: عن ابن بابويه، قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ شَاذَوِيهِ الْمُؤَدَّبُ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بَنِ مَسْرُورٍ عليه السلام عَنْهُمَا قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رِيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ، عَنْ الرِّضَا عليه السلام فِي حَدِيثٍ قَالَ فِيهِ: «فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وَكَانَ ابْنُ خَالِ فِرْعَوْنَ، فَنَسَبَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِنَسَبِهِ وَلَمْ يَضْفِهِ إِلَيْهِ بِدِينِهِ».

مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مَعْلَى بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ الْوَشَاءِ، عَنْ أَبَانَ بْنِ عَثْمَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقَالُ لَهُ: عَثْمَانُ الْأَعْمَى وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ يَزْعُمُ

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْعِلْمَ يُؤْذِي رِيحَ بَطْنِهِمْ أَهْلَ النَّارِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «فهلك إذا مؤمن آل فرعون مازال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً، فليذهب الحسنُ يميناً وشمالاً، فوالله ما يوجد العلم إلا هي هنا»^١.

وفي تفسير نورالثقلين عن بصائر الدرجات: مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ فَضَالٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنِ يَحْيَى الْحَلْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ لَهُ رَجُلٌ وَأَنَا عِنْدَهُ: إِنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ يَرَوِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجِئاً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» فَقَالَ: «كَذِبٌ، وَيَحَهُ، فَأَيْنَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ فَقَالَ: - فَلْيَذْهَبُوا حَيْثُ شَاءُوا، أَمَا وَاللَّهِ لَا يَجِدُونَ الْعِلْمَ إِلَّا هَاهُنَا - ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: - عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ».

و في تفسير علي بن إبراهيم: وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى عليه السلام قد كتم إيمانه ستمائة سنة، وهو الذي قال الله عز وجل:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

و في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة حديث طويل وفيه قالت العلماء: فَأَخْبَرْنَا هَلْ فَسَّرَ اللَّهُ الْإِصْطِفَاءَ الْكِتَابَ، فَقَالَ الرضا عليه السلام: «فَسَّرَ الْإِصْطِفَاءَ فِي الظَّاهِرِ سَوَى الْبَاطِنِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ مَوْطِئاً وَمَوْضِعاً: فَأَوَّلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَنْ قَالَ: وَأَمَّا الْحَادِي عَشَرَ، فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ حِكَايَةُ عَنْ قَوْلِ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَةِ، فَكَانَ ابْنُ خَالِ فِرْعَوْنَ فَنَسَبَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِنَسَبِهِ،

ولم يصفه إليه بدينه. وكذلك خُصَّصنا نحن إذ كنّا من آل رسول الله ﷺ بولادتنا منه، وعمّنا الناس بالدين، فهذا فَرْق بين الآل والأمة». فهذه الحادية عشرة.

في أصول الكافي: بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم، قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام، ثمّ مدح الله القلّة وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

في أمالي الصدوق بإسناده إلى عبدالرحمان بن أبي ليلى رفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب التّجار، مؤمن آل ياسين الذي يقول: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وخرقيل مؤمن آل فرعون، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم»^١.

[مناصحة مؤمن آل فرعون قومه عن أذى موسى وقتله]

﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

مناصحة مؤمن آل فرعون وتلطفه لقومه في الكف عن أذى موسى وقتله خوفاً من بأس الله وعذابه:

﴿يَا قَوْمِ﴾ خبر عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملايه: يَا قَوْمِ يَا قَوْمِي ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ﴾ وَالسُّلْطَانُ ﴿الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ أنتم على بنى إسرائيل وأقوياء عليهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرضكم أرض مصر وما والاها، أنتم عالين فيها، غالبين عليها. قاهرين لأهلها، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ فمن ينصرنا؟ ومن يدفع عنا بأس الله وسطوته إن حلّ بنا، وعقوبته إن جَاءَنَا، فلا تتعرضوا لعذاب الله بتكذيب موسى وقتله، والإتيان بضمير الجمع، وإدراج نفسه فيهم؛ لأنه كان منهم في القرابة، وليريهـم أنه معهم، وهو منا صـحـهـم، ومُـسـاهـمـهـم فيما ينصح لهم. وهذا تلطف منه في موعظتهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

قال فرعون مُضرباً عن المجادلة، ومجيباً لهذا المؤمن الناهي عن قتل موسى ﴿مَا أُرِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الرَّأْيِ وَالنَّصِيحَةِ﴾ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴿لِنَفْسِي وَلَكُمْ صَلَاحاً وَسَوَاباً﴾ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فِي أَمْرِ مُوسَى وَقَتْلِهِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَقْتُلُوهُ بَدَلْ دِينَكُمْ، وَأَظْهَرِ فِي أَرْضِكُمُ الْفُسَادَ، فَفِي رَأْيِي لَكُمْ صَوَابٌ وَخَيْرٌ وَرَشَادٌ، وَهُوَ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَسْرُخَافٌ مَا أَظْهَرَ، وَمَخَادَعٌ لَهُمْ، فَقَدْ كَانَ مُسْتَشْعِراً لِلْخَوْفِ الشَّدِيدِ مِنْ مُوسَى، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَجَلَّدُ.

[تحذير مؤمن آل فرعون قومه بنزول العذاب]

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾

و قال المؤمن من آل فرعون وهو الذي آمن بموسى عليه السلام لفرعون وملائه، والإيمان قوى نفسه وثبت قلبه، فلم يهب فرعون، ولم يعبأ به فأتى بتهديد وتخويف ونصح جديد لقومه لعلهم يراعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، فذكّرهم بأس الله وسنته في المكذّبين للرسول، وضرب لهم الأمثال بما حلّ بالأحزاب من قبلهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وفي هذا الإنذار والتخويف إشعار بوقوفهم قليلاً أو كثيراً على أخبار تلك الأمم البائدة وأحوال الأحزاب الهالكة.

﴿يَا قَوْمِ يَا قَوْمِي. وَالْإِضَافَةُ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ لِلِاسْتِعْطَافِ وَالتَّلَطُّفِ.﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴿إِنْ تَعَرَّضْتُمْ بِمُوسَى وَتَكْذِيبِهِ وَقَتْلِهِ.﴾ ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل نقمة الله وعذابه يوم الأحزاب الذين تحزّبوا على رسل الله: نوح وهود، وصالح بتكذيبهم وإيذائهم فأهلكهم الله بتحزّبهم عليهم، ودؤوبهم على الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، فيهلككم كما أهلكهم، واليوم واحد الأيام بمعنى الوقائع، وقد كثر استعمالها بذلك حتى صار حقيقة عرفيّة، أو بمعناها المعروف لغة، والإتيان باليوم مفرداً مضافاً مع أنّ لكلّ حزب يوم دمارٍ على حدة، فلا بدّ من أن يقال: أيام

الأحزاب؛ الأحزاب مفسر بقوم نوح وعادٍ وشمود الطوائف المختلفة المتباعدة الأزمان والأماكن، فهو أغنى عن جمع اليوم لأنّ المضاف إليه يعلمنا أنّ لكلّ قوم يوماً معيّناً في البلاد، فأغنى ذلك عن الإتيان بالجمع لارتفاع الالتباس، والإتيان بالفرد أرجح للخفة والاختصار.

[تذكير مؤمن آل فرعون قومه بمصائب قوم نوح و ...]

﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾

مِثْلَ دَابِّ: مثل جزاء دابٍّ والداب العادة والسنة. يقال: دَابٌّ يَدَابُّ دَابًّا فهو دائب في عمله إذا استمرَّ فيه، والعادة تكرر الشيء مرَّةً بعد مرَّةً بسهولة وبلا مشقَّة، مثل السنة الجارية في الأحزاب الظالمة سابقاً وقد أهلكهم الله واستأصلهم جزاءً على كفرهم، وإنَّما ابتلوا بسوء أعمالهم وجزاء شركهم وظلمهم. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والذين من بعدهم من قوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم من الأحزاب البائدة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ وما أهلك الله هذه الأحزاب والأمم ظلماً منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه؛ لأنَّه تعالى لا يريد ظلم عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به وخلافهم لأمره، وهذا التعبير أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ حيث إنَّ المنفي فيه حدوث تعلُّق إرادته بالظلم، ومن كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد، والنكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم، وتدلُّ على أنَّه تعالى لا يريد ظلماً مَّا لعباده. وفي هذا أوضح دلالة على فساد قول المجبِّرة القائلة بأنَّ كلَّ ظلم يكون في العالم فهو بإرادة الله.

[يوم التناد وعذابه]

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾

تخويف بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، وتكرار ضمير المتكلم للإصرار على التلطف والاستعطاف.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ﴾ بالاطمئنان والتأكيد ﴿عَلَيْكُمْ﴾، إذا ارتكبتُم في حقِّ موسى سوءاً وشرّاً عقاب ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ فانتصاب يوم بالمفعوليّة لا الظرفيّة ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وكسره حذف الياء للاجتزاء بالكسرة الدالّة عليها، وهو يوم القيامة و«التناد» التفاعل من النداء من «تنادى القومُ تنادياً» التنادي بين الخالق والمخلوق، و بين أصحاب الجنّة وأصحاب النار، بين أهل التّار وما لكها وبين الملائكة وأهل المحشر، وبين الظالمين بعضهم لبعض بالتّضايح والتنادي بالويل والثبور على ما اعتادوا به في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾^١

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾^١
 ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٢
 ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾^٣
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾^٤
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذِ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾^٥

و في تفسير نورالتقلين: عن كتاب معاني الأخبار بسنده عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «يَوْمَ أَلْتَنَاهُ» يوم ينادي أهل النار أهل الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

١. الأعراف: ٤٤.

٢. الأعراف: آية ٥٠.

٣. الزخرف: ٧٧.

٤. المؤمن: ٤٩.

٥. المؤمن: ١٠.

إِعدم تغيير حكم الله تعالى في إضلال من أضله الله تعالى |

﴿يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

﴿يَوْمَ تُولُون﴾ بدل من يوم التنادي، يوم تعرضون على النار فارين منها، مقدّرين في ظنكم أن الفرار ينفعكم، فتولون مدبرين هرباً من زفير النار وشهيقها. فلا يجديكم ذلك شيئاً، ولا تجدون من يعصمكم من العذاب، فتردون إليه، وينالكم منه ما قدّر لكم وكتب عليكم.

وقيل: منصرفين عن موقف الحساب إلى النار، والأول أولى؛ لأنّه أتم فائدة، وأظهر ارتباطاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

والجملة في محلّ النصب على الحالّة. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ومن عذابه مانع يمنعكم، وناصر ينصركم، فإنّه الملك والديان والمنتقم هناك لاسواه.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يخذله الله فلم يوفّقه لرشده فماله من موقّف يوفّقه له ومن يضلّل الله عن طريق الجنّة فماله من هاد يهديه إليه، وفي هذا إيحاء إلى أنّه يسّس من قبولهم لنصحه.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضِلُّ كُلَّ مُسْرِفٍ مُرْتَابٍ

﴿٢١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ

خطاب الآية يدلّ على أنّه مبتدأ كلام من الله سبحانه لعدم تناسبه مع ما يُظهره مؤمن آل فرعون من المماشاة معهم والتلطّف والاستعطاف بهم ويمكن أن يكون تّمّة كلام المؤمن لقرب عهد موسى ويوسف عليه السلام. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ وهو يوسف بن يعقوب ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات والآيات الواضحات.

و في الصافي عن المجمع عن الباقر عليه السلام في حديث أنّه سئل: كان يوسف نبياً رسولاً، فقال: «نعم، أما تسمع قولَ الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إلى آخر الحديث».

و معنى ﴿جَاءَكُمْ﴾ إلى آبائكم، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء، ونسبة أفعال الآباء إلى الأبناء للتواطؤ والتوافق واتّحاد السلوك والانهماك في التقليد. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وكان دأب آبائكم الغابرين مع يوسف الريب والشكّ والجدال والتعنّت،

وعدم الإيمان به، ومازأ لوا في زيب من أمره وشك في صدقه فلم يؤمنوا به حتى موته، فهذا التكذيب منكم متوارث والعناد قديم ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَیْبَعَثَ اللَّهُ مِنْ تَعْنُكُمْ وَكِبْرِيَاءُكُمْ وَعَدَمَ خُضُوعِكُمْ وَخُشُوعِكُمْ لِلْحَقِّ وَالرَّسُولِ نَفِیْتُمْ نَفِیًّا بَاتًّا أَبَدِیًّا بَعَثَ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَفَرَ آبَاؤُكُمْ بِهِ فِي حَیَاتِهِ، وَكَفَرُوا بِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ الرِّسْلِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ.

و في تفسير نورالثقلين عن روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَهْدَ إِلَىٰ آدَمَ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ عليه السلام - وَكَانَ بَيْنَ مُوسَىٰ وَيُوسُفَ عليهما السلام». ١
و ذكروا هذا القول: ﴿لَنَیْبَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أساساً لتشبههم وتمنيهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون من بعد يوسف عليه السلام من دون أن يكونوا مصدقين له، بل شكوا وكفروا برسالته ورسالة من جاء بعده، وهذه ظلمية الإنسان، وجهولية، ونهاية إسرافه في المعاصي والكفر، وغاية ارتياحه في الأدلة والحجج، وبهذه المناسبة جاء ذيلاً للآية الشريفة، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ والإشارة إلى أن مثل ما حكم الله بضلالة أولئك يحكم بضلال كل مسرف على نفسه بارتكاب معاصيه، واستكثاره منها، وارتياحه في دين الله مرتاب شاك في أدلة الله وآياته وحججه ووحدانيته ووعده ووعيده.

و في تفسير البرهان:

ابن بابويه، قال: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ عليه السلام، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَهْلٍ بْنِ زِيَادٍ الرَّازِيِّ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ آدَمَ النَّسَائِيِّ، عَنْ أَبِيهِ آدَمَ بْنِ أَبِي سَاسٍ، عَنْ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ سَيِّدِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ سَيِّدِ الْوَصِيِّينَ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (صلوات الله

عليهم)، قال: «قال رسول الله ﷺ لَمَّا حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته وأهل بيته، فحمد الله وأثنى عليه ثم أخبرهم بشدة تنالهم، يقتل فيها الرجال، وتشق بطون الحبالى، وتذبح الأطفال حتى يظهر الله الحق في القائم من ولدي لاوي بن يعقوب وهو رجل أسمر طويل، ووصفه لهم بنعته، فتمسكوا بذلك، ووقعت الغيبة، وشدت على بني إسرائيل وهم ينتظرون قيام القائم أربعمئة سنة حتى إذا بشرُوا بولادته، ورأوا علامات ظهوره واشتد البلوى عليهم، وحمل عليهم بالخشب والحجارة، وطلبوا الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى حاديشه، فاستتر، وراسلهم، وقالوا: كنّا مع الشدة نستريح إلى حديثك، فخرج بهم إلى بعض الصحاري، وجلس يحدثهم حديث القائم، ونعته، وقرب الأمر، وكانت ليلة قمرء، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى وكان في ذلك الوقت حدث السن، وقد خرج من دار فرعون يظهر النزهة، فعدل عن موكبه وأقبل إليهم وتحت بغلة وعليه طيلسان خرّ، فلَمَّا رآه الفقيه عرفه بالنعته، فقام إليه وانكبّ على قدميه فقبلها، ثم قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى رأيته، فلَمَّا رآه الشيعة فعل ذلك علموا أنه صاحبهم فانكبوا عليه، فلم يزداهم على أن قال: أرجو أن يجعل الله فرجكم ثم غاب بعد ذلك، وخرج إلى مدينة مدين فأقام عند شعيب ما أقام فكانت الغيبة الثانية أشدّ عليهم من الأولى، وكانت نيفاً وخمسين سنة، واشتدت البلوى عليهم، واستتر الفقيه، فبعثوا إليه أنه لا صبر لنا على استتارك عتّا، فخرج إلى بعض الصحاري، واستدعاهم، وطيب قلوبهم، وأعلمهم أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليه أنه مفرّج عنهم بعد أربعين سنة، فقالوا: الحمد لله، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: قل لهم: قد جعلتها ثلاثين سنة لقولهم، الحمد لله، فقالوا: كلّ نعمة فمن الله، فأوحى الله إليه قل لهم: قد جعلتها عشرين سنة، فقالوا: لا يأتي بالخير إلّا الله، فأوحى الله إليه قل لهم: قد جعلتها عشراً، فقالوا، لا يصرف السوء إلّا الله، فأوحى الله إليه قل لهم: لا تبرحوا، فقد أذنت في فرجكم، فبينما هم كذلك إذ طلع موسى راكباً حماراً، فأراد الفقيه أن يعرف الشيعة ما يتبصرون به،

وجاء موسى عليه السلام حتى وقف عليهم، فسلم عليهم، فقال له الفقيه: ما اسمك؟ فقال: موسى، قال: ابن من؟ قال: ابن عمران، قال: ابن من؟ قال: ابن فاهث بن لاوي بن يعقوب، قال: بماذا جئت؟ قال: بالرسالة من عند الله عز وجل، فقام إليه، فقبل يده، ثم جلس بينهم، وطيب نفوسهم، وأمرهم أمره ثم فرقهم، فكان بين ذلك الوقت وبين فرجهم بغرق فرعون أربعين سنة.^١

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرَ مَقْتًا﴾ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بدل وبيان من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ لأنَّ الموصول بمعنى الجمع وعدم إرادة مسرف واحد بل كل مسرف مرتاب، فهو في موضع النصب، ويمكن أن يكون خبراً مرفوعاً بتقدير ﴿هُمْ﴾، وتفسير الكلام كذلك: يَضِلُّ اللَّهُ أَهْلَ الإسراف والغلوِّ في ضلالهم بكفرهم بالله، واجترائهم على معاصيه، المرتابين في أخبار رسله، الذين يخاصمون في حججه التي أتتهم بها رسله، ليدحضوها بالباطل من الحجج بغير سلطان وحجة أتتهم من ربهم، يدفعون بها حقيقة الحجج التي أتتهم بها الرسل بغير سلطان لهم، أتتهم من الرسل والأنبياء أو من العقول السليمة، فيجادلون من غير حجة صالحة للتمسك بها، لاعتقالية، ولانقلبية تمسكاً بتقليد الآباء والأجداد ترهات الأباطيل التي لا يتقبلها ذوو الحصافة والرأي. وهذه شيمة من تعدى طوره معرضاً عن الحق، ومتبعاً للهوى، قد استقرَّ في نفسه الارتياح، فلا يستقرَّ على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق، يجادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه.

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كبر وعظم ذلك الجدل الذي يجادلون في آيات الله مقتاً وعداوة عند الله وعند الذين آمنوا ونُصِبَ مقتاً تمييزاً لما في قوله ﴿كَبُرَ﴾ من ضمير الجدل المستفاد من يجادلون، نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فالفاعل ضمير مذكور في ﴿كَبُرَ﴾ لأنه محذوف؛ لأنَّ الفاعل لا يصح حذفه.

وفي الكلام ضرب من التعجب والاستعظام لجدلهم، والشهادة على خروج هذا الجدل من حدِّ نظائره من الكبائر، والمعنى أنَّ من مقت الله والذين آمنوا مقته الله تعالى، ولعنه، وأعدَّ له العذاب، ومقته المؤمنون، وأبعضوه بهجرهم إياهم، والاحتراس من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا وأنتم جادلتمهم وخاصمتهم في ردِّ آيات الله مثلهم فاستحققتهم ذلك.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ كذلك يطبع الله، كما طبع على قلوب المسرفين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم، كذلك يطبع الله على كلِّ قلب متكبر على الله أن يوحدّه ويصدِّق رسله، جَبَّارٌ متعظَّمٌ عن اتِّباع الحقِّ والآنف من قبله. ووصف القلب بالتكبر والجبروت؛ لكونه مركزهما ومنبعهما، كما في ﴿فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ﴾ ورأت العين وسمعت الأذن.

و أجاز الزمخشري أن يكون على حذف المضاف، أي على كلِّ ذي قلبٍ متكبرٍ بجعل الصِّفة لصاحب القلب، ولا ضرورة تدعو إلى تكلف الحذف؛ فإنَّ القلب هو الذي يتكبر وساير الأعضاء تبع له.

وفي الحديث الشريف في خصال الصدوق بسنده عن مجاهد قال: سمعت الشعبي يقول: سمعت نعمان بن بشير يقول:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحَّت سلم بها

سائر الجسد، فإذا سَقَمَت سَقَمَ بِهَا سائر الجسد وفسد وهي القلب»^١.

رجع الآية الشريفة

و في تفسير علي بن إبراهيم: وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ يعني بغير حجة يخاصمون أتاهاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فإنه حدّثني أبي عن أبي عمير، عن منصور بن يونس، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ فِي النَّارِ لَنَارًا يَتَعَوَّذُ مِنْهَا أَهْلُ النَّارِ مَا خُلِقَتْ إِلَّا لِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَلِكُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَلِكُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَلِكُلِّ نَاصِبٍ الْعَدَاوَةِ لَأَلِ مُحَمَّدٍ ﷺ»

- وقال: - إِنَّ أَهْوَنَ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِرَجُلٍ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ، وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يُغْلَى مِنْهَا دِمَاغُهُ، كَمَا يُغْلَى الرَّجُلُ، مَا يَرَى أَنَّ فِي النَّارِ أَحَدًا أَشَدَّ عَذَاباً مِنْهُ، وَمَا فِي النَّارِ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَذَاباً مِنْهُ»^٢.

١. الخصال، ص ٣١، ح ١٠٩.

٢. كنز الدقائق، ج ١١، ص ٣٨٤.

[طلب فرعون عن هامان لبناء صرح]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾

و قال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به وزجره عن قتل موسى نبي الله، وحذره من بأس الله على قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال لهامان ولعله وزيره ووزير السوء ﴿ابْنِ لِي﴾ تصريح بالأمر إظهار الطلب بأنتم الإظهار ﴿صَرْحًا﴾ بناء شامخاً عالياً ظاهراً لا يخفى على الناظر وإن بعد، مشتقاً من صرح الشيء: إذا ظهر.

والعجب أن اليهود الباحثين عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون قالوا: إن هامان ما كان موجوداً في زمن موسى وفرعون، وإنما جاء بعدهما بزمان مديد، فصدقوا تاريخهم، وكذبوا القرآن مع أنهم مقرّون بأن أحوالهم اضطربت بسبب غلبة بخت نصر على ملكهم حتى ضيّع توراتهم سيّما قد طال العهد بتأريخ أحوالهم، وما المانع عن أن يكون هامان متعدداً في زمن متعدّد من فرعون، والقرون التالية، فكيف يبقى اعتماد بمثل هذا التأريخ حتى يُنسب الصدق إلى التأريخ المشوّش، والكذب إلى القرآن المتعالي عن الكذب علّواً كبيراً.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ تمنّى منه لأمر سخيّف باطل.

اقول فرعون لموسى اظنه كاذباً

﴿٣٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ

أسباب السماوات بيانا لها، أسباب أتسبب بها إلى الوصول إلى إله موسى ورؤيته، طرقات كانت تلك الأسباب، أو أبواباً، أو منازل أو غير ذلك، أسباب لا تضطرب، ولا تسقط، ولا تزول إلى خلاف جهتها. وفي التكرير إيهام ثم إيضاح تفخيماً لشأن الأسباب، وتشويقاً للسامع إلى معرفتها؛ فإنه إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فأراد تفخيم ما أمل بلوغ من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها؛ ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجبياً أراد أن يورده على نفسٍ متشوّفة إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليتشوّف إليه نفس هالمان ثم أوضحه. ﴿فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ أشرف عليه لأراه جهلاً منه، واعتقاداً باطلاً أن الله سبحانه في السماء، وأنه يقدر على بلوغ السماء.

وقيل: أراد أن يطلع إلى بعض الآيات التي يدعيها موسى الدالة على إله موسى؛ لأنه كان يعلم أن الصرح لا يبلغ السماء، ولهذا قيل أيضاً: لعله أراد أن ينبني له رسداً في موضع عالٍ يرصد منه أحوال الكواكب التي أسباب سماوية تدل على الحوادث

الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه؛ وأن يرى فساد قول موسى بأن إخباره من إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه. وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه إنسان، وذلك لجهله بالله وكيفية استنباطه.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ فيما يقول ويدّعي من أن له في السماء ربّاً أرسله إلينا. وهذا منه تمويه وتلبيس على قومه، وكأنه يقول: لو كان إله موسى موجوداً لكان له محلّ، ومحلّه إما الأرض، وإما السماء، ولم نره في الأرض، فإذا هو في السماء، والسماء لا يتصل إليها إلا بسلم، فيجب أن نبني الصرح لنصل إليه. وقالوا: إنما قال فرعون: هذا على التمويه وتعمد الكذب وهو يعلم أن له إلهاً ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وكذلك كما زين للكافرين سوء أعمالهم، زين لفرعون لعتوه وتمرّده سوء عمله حتّى سوّلت له نفسه وشيطانه المغوي بلوغ أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وصدّ ومنع عن السبيل عن الوصول إلى مناه، وعن الطريق إلى رشده ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ واحتياله ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وضلال وهلاك وذهاب مال وغبن، فبطلت ما أنفقته على بناء الصرح، ولم ينل بهذا التعب وبما أنفقه شيئاً ممّا أراد. وإنما يذهب باطلاً سدّى دون الوصول إلى شيء.

[طلب مؤمن آل فرعون تبعيّة قومه له]

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٨)

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ اعتناء شديد من مؤمن آل فرعون بهداية قومه وإرشادهم إلى سبيل الرشاد ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ من قوم فرعون لقومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إضافة القوم إلى الضمير وتكرير في الآيات الخاضرة للاستعطاف الشديد والالتفات الأكيد إليهم. ﴿اتَّبِعُونِ﴾ اتبعوني، طلب متابعتهم له تلطفاً منه، وترحماً بحقهم، وأنه يريد خيرهم وصلاحهم، وأنّ الرائد لا يكذب أهله.

﴿أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الهدى، جزم ﴿أَهْدِيكُمْ﴾ لوقوعه جواباً عن الأمر على سبيل تضمين الكلام معنى الشرط والجزاء، بمعنى: إن اتبعتم عظمتي وقبلتم مني ما أقول لكم، يثبت لكم طريق الصواب، ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه، وهو دين الله الذي انبعث به موسى عليه السلام من الإيمان بالله، وتوحيده، وإخلاص العبادة له، والإقرار بموسى عليه السلام.

والهداية في المقام إراءة الطريق، والرشاد هو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا، وفيه تعريض لقول فرعون، ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال، لا الهداية والرشاد. وكذا فيه إشارة إلى أنّ الهداية مودعة في اتباع الأنبياء والأولياء، وللوليّ والمتّبع أن يهدي سبيل الرشاد اتباعاً للنبيّ والرسول عليه السلام.

إنّ هذه الحياة الدنيا متاع تستمتعون بها

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

ترك واو العطف للتفسير، فإنّه أجمل ثمّ فسّر سبيل الرشاد، فافتتح بذكر الدنيا وتصغير شأنها ووعظهم بعدم الاغترار بها، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ العاجلة التي تتمتعون بها، وتغترّون بشوكتها وسلطانها إنّما هي متاع ومتعة تستمتعون بها إلى أجل أنتم بالغوه، ثمّ تموتون، وتزول عنكم، ويبقى وزرها وآثامها. فالإخلاء والركون إلى الدنيا أصل الشرّ كلّ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدّي إلى سخط الله، ويجلب الشقاوة في العاقبة ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي تستقرّون فيها، وهي خالدة، فلا تموتون، ولا تزول عنكم، وسميت الآخرة دار قرار؛ لاستقرار الجنة بأهلها، واستقرار النار بأهلها، والقرار: المكان الذي يستقرّ فيه فلا تغتروا بالدنيا الفانية، ولا تؤثروها على الدار الباقية.

و في البحار عن إعلام الدين للدليمي، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيّها الناس، اتّقوا الله حقّ تقاته، واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعملوا لما بعد الموت فكأنكم بالدنيا لم تكن و بالآخرة لم تزل. أيّها الناس، إنّ من في الدنيا ضيف، وما في أيديهم عارية، وأنّ

الضيف مرتحل، والغارية مردودة»^١.

قال مولانا وسيدنا أمير المؤمنين (عليه أفضل صلوات المصلين): «الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتكم»^٢.

١. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٨٧.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٤، ص ٩٠٧ (طبعة جاويدان).

[دخول الصالحين في الجنة وارتزاقهم بغير حساب]

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يمكن كون الجملة من قول الله جلّ شأنه معترضة بين عظات المؤمن ونصائحه، ويشهد عليه الإخبار عن كون جزاء السيئة مثلها، و رزق المؤمن في الجنة بغير حساب، وهذا إخبار من الله جلّ شأنه، ويمكن كونها من قول المؤمن وعظاته، ولا عجب أن يخبر مثله عن هذا الأمر بإفاضة من الله جلّ شأنه.

بعد ما أشار المؤمن ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة ثواباً أو عقاباً، مشيراً إلى غلبة جانب الرحمة على جانب العقاب، فقال ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في هذه الحياة الدنيا ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها تشاكل ما أتى به في هذه الدنيا من السيئة، ويعاقب الله عامل السيئة عقاباً يستحقها لأكثر منها، لأنّ الزيادة على مقدار السيئة ظلم وقبيحة، وخلود عقاب الكافر ناشئ عن إصراره على الكفر في الدنيا، وعزمه على أن يبقى على الكفر أبداً؛ لكونه اعتقاده ودينه، فعقابه مؤبّد بخلاف الفاسق المؤمن؛ لإيمانه بالله، واعتقاده بأنّ إثمه خيانة ومعصية وتجاوز عن وظائف العبودية، فلا يعزم على

ارتكاب المعصية دائماً، ولا يصّر على اقتراف الذنب أبدياً، بل هو لا يزال بين الارتكاب والاعتذار، والاعتداء والندامة، وهو تَوَابٌ لَتَوَابٍ وَيُحِبُّ أَلْتَّوَابِينَ^١. والآية أصل كبير في علوم الشريعة، لوجوب رعاية المماثلة في الأحكام إلّا في مواضع التخصيص. ومن القاعدة أنّ الجنايات تغرم بمثلها. فلذا يكون هذا الأصل جارياً في الأحكام الكثيرة، مثل باب الجنايات على النفوس، وعلى الأعضاء، وعلى الأموال، وعلى العبادات.

و من عمل صالحاً بطاعة الله في الدنيا واثمر أمره، وانتهى فيها عمّا نهاه عنه من ذكر وانثى، ورجل وامرأة من دون فارق بينهما إلّا بعمل صالح، وهو مؤمن بالله، ومصّدق به وبأنبيائه، والإيمان بالله، والتصديق به شرط في قبول العمل الصالح، ولذا جعل العمل عمدة، والإيمان حالاً للدلالة على شرطيته في اعتبار العمل، فأولئك الذين جمعوا بين العمل الصالح والإيمان يدخلون الجنة، ويمتعون بنعيمها. والإيتان بالجملة الاسمية مصدرة باسم الإشارة للاعتناء بشأن الصالحين المؤمنين، و تغليبا للرحمة الإلهية.

﴿يُزْزَقُونَ فِيهَا﴾ يرزقهم الله في الجنة من نعيم الجنة والآخرة نعماً معنوية، وعنايات سبحانه، وإفاضات ربّانية، ونعماً مادية من ثمارها ولذاتها، زيادةً على ما يستحقّونه تفضلاً منه تعالى ﴿يَغْيَرُ حِسَابٍ﴾ لا على مقدار العمل حتى تكون بحساب و موازنة، وبلا احتساب، وتبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير فلا تتبعها محاسبة وسؤال وجواب بعد.

واحتساب النعم على أن الجنة من خوف النفاذ، ونعم الله وخزائنه لا تنفد، فلا حاجة إلى الرقابة والحفاظ.

وفي تفسيري كنز الدقائق ونور الثقلين عن كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشبه عليه من الآيات: «و أما قوله عز وجل: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: قال الله عز وجل: لقد حقّت كرامتي، أو قال: مودّتي لمن يراقبني ويتحابّ بجلالي. إنّ وجوههم يوم القيامة من نور، على منابر من نور، عليهم ثياب خضر. قيل: من هم يا رسول الله. قال: قوم ليسوا أنبياء ولا شهداء، ولكنهم تحابّوا بجلال الله، ويدخلون الجنة بغير حساب». نسأل الله أن يجعلنا منهم برحمته.

وفي كتاب معاني الأخبار حدّثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمته، قال: حدّثنا محمد بن الحسن الصفار، قال: حدّثنا أحمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل له: إنّ أبا الخطاب يذكر عنك أنّك قلت له: «إذا عرفت الحقّ فاعمل ما شئت»، قال: «لعن الله أبا الخطاب، والله ما قلتُ هكذا، ولكنّي قلت: إذا عرفت الحقّ فاعمل ما شئت من خير يُقبل منك. إنّ الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

و يقول تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخَوِّضَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.^١

دعوة قومه إلى الهداية ودعوتهم إِيَّاهِ إلى النار

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾

و يا قوم عطف على النداء الثاني المفصل لما أجمل أولاً، ولذلك عطف بالواو، يكرّر المؤمن عظمته ونصحه لقومه تعظفاً عليهم، وإيقاظاً عن سنة الغفلة؛ لأنهم قومه وعشيرته، وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزّن لهم، ويتلطّف بهم، فإنّ سرورهم وغمّهم سروره وغمّه، ويستدعي مكرّراً أن لا يتهموه، وينزلوا على تنصيحه.

﴿ما لي﴾ أما تتعجبون، لا أنتظر منكم شيئاً إلاّ هدايتكم ونجاتكم من دون النظر إلى دنياكم وشوكتكم. فأنصفوا ووازنوا بين الدعوتين: دعوتي ودعوتكم، دعوتي إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتكم إلى اتّخاذ الأنداد التي عاقبته النار. ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ من عذاب الله وعقوبته، والدعاء طلب الطالب الداعي الفعل عن غيره، والدعاء إلى النجاة دعاء إلى سببها من الإيمان بالله، واتباع رسوله موسى، وتصديقه فيما جاءكم به من عند الله، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وسببها وأهلها وعملها وعقابها وعذابها، والدعوة إلى سبب الشيء دعوة إليه، والدعوة إلى الشرك وعبادة الأنداد والأوثان دعوة إلى النار.

الدعوة الى الله العزيز الغفار

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾

وما أنا إلا ناصح لكم، وداعٍ لكم إلى النجاة، وأنتم تدعونني لأكفر بالله وأشرك به أو ثنائاً ليس لي به علم بربوبيتها، ولا أعلم أنها تصلح للعبادة وإشراكها في عبادة الله. والألوهية لا بد لها من برهان، واعتقادها لا يصح إلا عن إيقان، ولا يحصل هذا من طريق السمع، ولا من طريق العقل، ونفي العلم هنا كناية عن نفي المعلوم، أي لانعلم معبوداً وإلهاً من دون الله. والجملة بدل من ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ أو عطف بيان له بناء على جري عطف البيان في الجمل كالمفردات، أو جملة مستأنفة مفسرة للسابقة. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ﴾ معاصر قومي ﴿إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ المستجمع للصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والارادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران، وتخصيص الوصفين بالذكر وإن كانا كناية عن جميع الصفات لاستلزامهما ذلك.

﴿أَدْعُوكُمْ﴾ إلى الرجوع والتوب إلى العزيز في انتقامه ممن كفر به لا يمنعه من انتقامه شيء ﴿الْغَفَّارِ﴾ لمن تاب إليه بعد معصيته إياه؛ لعفوه عنه، فلا يضّر التائب شيء مع عفوه عنه.

﴿أَنْ مَأْوَى الْمُسْرِفِينَ النَّارُ﴾

﴿لَا جَزَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

﴿لَا جَزَمَ﴾ قيل: فيها وجهان لأهل اللغة: أحدهما: أنها كلمة واحدة وضعت موضع «حَقًّا» أو «لَا بَدَّ» وهذا الوجه غريب لا يعأبه.

والوجه الآخر: أنها كلمتان لردّ الكلام والدعوى. «وَجَزَمَ» فعل بمعنى «حَقَّقَ» فمعناه حقاً مقطوعاً. وقال المبرد: معناه حَقٌّ وَاسْتَحَقَّقَ. وفي اللسان «الجزم: القطع، جَزَمَهُ: قَطَعَهُ، وشجرة جريمة أي مقطوعة».

قال أبو أسماء بن الضريبة:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَزَمْتُ فَرَاةَ بَعْدَ هَا أَنْ يَغْصِبُوا /

أي حَقَّتْ لها الغضب. فلا الداخلة على الفعل لنفي ما ادَّعوه، وردّ ما زعموه، وفاعل الفعل هو قوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا مجال لدعوايكم بل حَقٌّ وَوَجَبَ بطلانُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها.

﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾

حقاً أَنْ الَّذِي تدعونني إليه من الأوثان ليس له دعوة ودعاء ينتفع بها في أمر

الدنيا، ولا فى الآخرة. فهذه الأوثان ليس لها دعوة إلى أنفسها، ولا استجابة دعوة لها
لا فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ فإنها جمادات لا تنطق ولا تفهم شيئاً، ولا تنفع ولا تضر،
ولا أرسلت نبياً من ناحيتها ليدعوا الناس إلى عبادتها، وهى فى الآخرة لارجوع إليها
من أحد وإذا قلبت حيوانات تتبرأ من عابديها.

وأما الذى أدعوكم إليه سبحانه له دعوة فى الدنيا تصدّاها أنبياءه ورسله
المبعوثون من عنده، والمؤيدون بالحجج والبيّنات. والرّبوبيّة لا تتم بدون دعوة فى
الدنيا ولا فى الآخرة. وليست لهذه الأوثان دعوة مستجابة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.
فلا تستجيب دعوة أحد، ولا تستجاب دعوة واحد منها. وعلى هذا سميت استجابة
الدعوة دعوة إطلاقاً لاسم أحد المتضايفين على الآخر، كقوله: ﴿وَجَزَأَوْ سَيِّئَةً
سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ فهى كما قال الله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ عطف على ما تدعونى داخل فى حكمه. والمعنى ﴿وَأَنْ
مَرَدَّنَا﴾ مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله تعالى، العالم بكلّ المعلومات، والقادر
على كلّ الممكنات، والغنى عن كلّ الحاجات الذى لا يبدّل القول لديه، وما هو
بظلام للعبيد.

وأي عاقل يجوز له عقله أن يشغل بعبادة هذه الأوثان الباطلة، والأشياء
الزديلة التى لا تدعو، ولا تستجيب، ولا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وأنّ المتعدّين حدود الله،
المكثرين معاصيه، والمشرّكين بالله، سفاكي الدماء بغير حقّها، وقتلة النفوس
التي حرّم الله قتلها، هم أصحاب نار جهنّم عند مرجعهم إلى الله، فالذى
أدعوكم إليه فيه النجاة دون ما تدعونى إليه أيّها المشركون، وكان فرعون عالياً
عاتياً فى كفره بالله، سفاكاً للدماء التى كان محرّماً عليه سفكها، والإسراف إشارة

إلى قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ وإلى قول المؤمن قبل ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصّحبة: الملازمة، وأصحاب النار ملازموها: إمّا ملازمةً موقّنةً شاملةً للمكث الطويل، كما في المسرف المؤمن العاصي الذي يشمل العفو الإلهي بعد مدّة، وإمّا ملازمة خالدة، كما في الكافر والمشرّك.

في تفويض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله تعالى

﴿فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

قال المؤمن شفقةً ورحمةً لهم، وتخويفاً وتخديراً ليفكروا في عاقبة أمرهم لعلهم يراجعون، فقال تفريعاً على قوله: ﴿وَأَنْ مَّرَدُّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ﴾ أيها القوم صدق ما أقول، وصحة ما أخبركم به إذا غاينتم عقاب الله قد حلّ بكم، ولقيتم ما لقيتموه، وإن لم تسمعوا اليوم ولكنكم ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ﴾ أنني كنت ناصحاً لكم، وبالغت في نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد، وستندمون حين لا ينفع الندم. وفي هذا الإيهام من التخويف والتهديد ما لا يخفى.

ثم يبين اطمئنانه إلى ما جرى به القدر، ويخبئه له الغيب، كما هو دأب المؤمنين الصادقين، ويخبر عن نفسه جواباً لتخويفهم وتوعيدهم، ويظهر أنهم أرادوا الإيقاع به، فقال: ﴿وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أسلم أمري إلى الله، وأردّه إليه، وأتوكل عليه، وهو العاصم من كل سوءٍ، وإنما تعلّم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فإن فرعون لما خوّفه بالقتل قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. وفي القاموس: فوّض إليه الأمر ردّه إليه. وقال في الميزان:

التفويض على ما فسّره الراغب هو الردّ. فتفويض الأمر إلى الله ردّه إليه، فيقرب من

معنى التوكّل والتسليم، والاعتبار مختلف. فالتفويض من العبد ردّه ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه، وحال العبد حينئذٍ حال مَنْ هو أعزل لأمر راجعاً إليه، والتوكّل من العبد: جعله ربّاً وكيلاً يتصرّف فيماله من الأمر، والتسليم من العبد: مطاعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه، ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه، فهي مقامات ثلاث من مقامات العبوديّة: التوكّل ثمّ التفويض، وهو أدقّ من التوكّل، ثمّ التسليم وهو أدقّ منهما. انتهى ما في الميزان.

و في المقام كلمات للأكابر وبما ذكرنا من الميزان كفاية.
ثمّ استدلّ المؤمن وعلّل تفويضه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ خبير بأحوالهم، وعالم بما يفعلونه من طاعة ومعصية، فيعصمهم من السيئات، سيئات الدنيا والآخرة، فيعطي المطيع جميل الثواب والعاصي سيّئ العقاب. والعدول عن الضمير إلى إظهاره باسم الظاهر، ولم يقل: إنّ بصير إشارة إلى علّة بصيرته بالعباد، كأنّه قيل: إنّ بصير بالعباد؛ لأنّه الله عزّ اسمه.

و في مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: «المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد، والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقاً هو العالي عن كلّ همّة دون الله، تعالى». كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

رَضِيتُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لِي ي وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى خَالِقِي
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ

و قال الله (عزّ وجلّ) في المؤمن من آل فرعون: ﴿وَأَفَوَّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ * فوقاه الله سيئات ما مكّروا وحاقّ بآل فرعون سوء العذاب. والتفويض خمسة أحرف لكلّ حرف منها حكم، فمن أتى بأحكامه فقد أتى به. «التاء» من تركه التدبير في الدنيا. و«الفاء» من فناء كلّ همّة غير الله تعالى، و«الواو» من وفاء العهد وتصديق الوعد، و«الياء» من اليأس من نفسك واليقين برّبك،

و«الضاد» من الضمير الصافي لله والضرورة إليه. والمفوض لا يصحح، إلا سالماً من جميع الآفات، ولا يسمي إلا معافى بدينه»^١.

وفي خصال الصدوق: حدثنا جعفر بن محمد بن مسرور قال: حدثنا الحسين بن محمد بن عامر، عن عمه عبد الله بن عامر، عن محمد بن أبي عمير، قال: حدثنا جماعة من مشايخنا منهم أبان بن عثمان، وهشام بن سالم، ومحمد بن حرمان عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: «عجبت لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع: عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله عز وجل: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ فإني سمعت الله جلّ جلاله يقول بعقبا: ﴿فَاتَّقَلُّوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾^٢، وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله عنّ وجلّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فإني سمعت الله عز وجلّ يقول بعقبا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣، وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ فإني سمعت الله جلّ وتقدّس يقول بعقبا: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٌ﴾^٤، وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ فإني سمعت الله عزّ اسمه يقول بعقبا: ﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْزِينَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾^٥ وعسى موجبة»^٦. وعسى موجبة يعني كلمة «عسى» في الآية للإيجاب والإثبات لا للترجي أو الإشفاق، والظاهر أنّه من كلام المصنّف الصدوق.

١. كزالدقائق، ج ١١، ص ٣٨٩؛ نورالقلبين، ج ٤، ص ٥٢٠.

٢. آل عمران: ١٧٤.

٣. الأنبياء: ٨٧.

٤. غافر: ٤٤.

٥. الكهف: ٣٩.

٦. الخصال، ص ٢١٨.

و في التهذيب بإسناده عن الحسن (الحسين) بن علي بن عبد الملك الزيات، عن رجل، عن كرام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أربع لأربع، فواحدة للقتل والهزيمة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسْنَهُمْ سُوءٌ^١، والأخرى: للمكر والسوء ﴿وَأَفْوَضْ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ عزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾^٢

والثالثة: للحرق والفرق ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، وذلك أَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^٣ والرابعة: للغم والهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^٤.
و في تفسير روح البیان للحقي:

روي أَن ابن مسعود عليه السلام خرج مع بعض الأصحاب رضى الله عنهم إلى الصحراء، فطبخوا الطعام، فلما تهيأوا للأكل رأوا هنالك راعياً يرعى أغناماً، فدعوه إلى الطعام، فقال الراعي: كلوا أنتم فإنني صائم، فقالوا له بطريق التجربة: كيف تصوم في مثل هذا اليوم الشديد الحرارة، فقال لهم: إن نار جهنم أشدَّ حرّاً منه، فأعجبهم كلامه. فقالوا له: بع لنا غنماً من هذه الأغنام نعطك ثمنه مع حصّة من لحمه. فقال لهم: هذه الأغنام ليست لي

١. آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤.

٢. المؤمن: ٤٥.

٣. الكهف: ٤٠.

٤. الأنبياء: ٨٨.

٥. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٧١، ح ٣٢٩.

وإنّما هي لسيّدِي ومالكي، فكيف أبيعُ لكم مالَ الغير، فقالوا له: قل لسيّدك: إنّهُ أكله
الذنب أَوْضاع، فقال الراعي: أين الله؟ فأعجبهم كلامه زيادة الإعجاب ثمّ لمّا عادوا إلى
المدينة اشتراه. ابن مسعود من مالكة مع الأغنام فأعتقه، ووهب الأغنام له. فكان ابن
مسعود يقول له في بعض الأحيان بطريق الملاطفة: «أين الله»؟^١

[نتيجة تفويض الأمر إلى الله]

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

و نتيجة تفويض الأمر إلى الله الوقاية والحراسة منه تعالى. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وقاه وحفظه من السيئات، ودفع عنه بإيمانه، وتصديق رسوله موسى ما مكر به فرعون وملأه. إشارة إلى أنهم قصدوه بالسيئات لكنَّ الله وقاه وحفظه ودفعهم عنه.

قيل: صرف الله عنه مكرهم فنجاع موسى حتى عبر البحر معه.

وقيل: إنهم هموا بقتله فهرب إلى جبل، فبعث فرعون رجلين في طلبه، فوجداه قائماً يصلي وحوله الوحوش صفوفاً فخافا، ورجعا هاربين. وسنذكر بعض الروايات.

﴿وَحَاقَ﴾: حلّ ونزل، قال الكسائي: يقال: حاق يحيق حيقاً وحيوقاً: إذا نزل ولزم. ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ آل الرجل أشياعه وأتباعه، وربما يقال: آل فلان ويشمل نفسه فترك التصريح باسم فرعون للاستغناء بذكرهم عن ذكره؛ لأنه أولى منهم بذلك؛ ولكونه متبوعاً لهم، ورئيساً ضالاً مضللاً. والآية في الشمول كقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ وهو شامل لداود عليه السلام. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب السيئ إضافة للصفة إلى الموصوف، كعذب الماء، أي العذاب السيئ، في التوصيف بالمصدر بمبالغة،

أي سوء العذاب في الدنيا والآخرة.

و في أصول الكافي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن أيوب بن الحر، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٍ﴾ فقال: «أما لقد سلطوا عليه، وقتلوه، ولكن أتدرون ما وقاه. وقى أن يفتنوه في دينه»^١.

وفي محاسن البرقي، عن أبيه. عن علي بن النعمان إلى آخر ما نقلناه عن الكافي.^٢

و في تفسير علي بن إبراهيم: وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٍ﴾ يعني مؤمن آل فرعون، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «والله لقد قطعوه إرباً إرباً ولكن وقاه الله عز وجل أن يفتنوه في دينه»^٣.

و قال العلامة المجلسي رحمته الله في حياة القلوب:

إن الأحاديث في باب قتل مؤمن آل فرعون ونجاته مختلفة. ويمكن أنه نجا في أول أمره، وفاز بدرجة الشهادة في آخر أمره، فيكون المراد في وقايته من الله منهم وقاية دينه وعقيدته باستعانة من الله، واستقامته في دين الله، ومجاهداته الشاقة المضنية.

و في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمته الله: وبالإسناد الذي تقدّم عن أبي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: «قال بعض المخالفين بحضرة الصادق عليه السلام لرجل من الشيعة: ما تقول في العشرة من الصحابة: قال: فيهم الخير الجميل الذي يحطّ الله به سيئاتي، ويرفع به درجاتي، قال السائل: الحمد لله على ما أنقذني من بغضك، كنت

١. الكافي، ج ٢، ص ٢١٥، ح ١.

٢. المحاسن، ص ٢١٩، ح ١١٩.

٣. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٥٨.

أَطْلُكَ رَافِضِيًّا تَبْغِضُ الصَّحَابَةَ. فقال الرجل: أَلَا مِنْ أَبْغَضَ وَاحِداً مِنَ الصَّحَابَةِ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ. قال: لَعَلَّكَ تَتَأَوَّلُ مَا تَقُولُ فِي مَنْ أَبْغَضَ الْعَشْرَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ. فقال: مَنْ أَبْغَضَ الْعَشْرَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ، فَوُثِبَ فَقَبِلَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: اجْعَلْنِي فِي حَلٍّ مِمَّا قَدْ فَتَنَكَ بِهِ مِنَ الرِّفْضِ فَيْكَ الْيَوْمَ. قال: أَنْتَ فِي حَلٍّ وَأَنْتَ أَخِي، ثُمَّ انْصَرَفَ السَّائِلُ وَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ (ع): جَوَّدْتَ لِلَّهِ دَرْكَ، لَقَدْ عَجِبْتَ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ حَسَنِ تَوَرِيثِكَ، وَتَلَفُّظِكَ بِمَا خَلَّصَكَ اللَّهُ، وَلَمْ تَتَنَلَّمْ (تَلْمِخْ) لِدِينِكَ، وَزَادَ اللَّهُ فِي مَخَالَفِنَا غَمًّا إِلَى غَمٍّ، وَحَجَبَ عَنْهُمْ مَرَادَ مُنْتَحَلِي مَوَدَّتِنَا فِي أَنْفُسِهِمْ. قال بعض أصحاب الصادق (ع): يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا عَقَلْنَا مِنْ كَلَامِ هَذَا إِلَّا مُوَافَقَةً صَاحِبِنَا لِهَذَا الْمُتَعَنِّتِ النَّاصِبِ. فقال الصادق (ع): لَا، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَفْهَمُوا مَا عَنِي فَقَدْ فَهَمْنَاهَا نَحْنُ، وَقَدْ شَكَرَهُ اللَّهُ لَهُ، أَنَّ الْمَوَالِي لِأَوْلِيائِنَا الْمَعَادِي لِأَعْدَائِنَا إِذَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِمَنْ تَمْتَحِنُهُ مِنْ مَخَالَفِيهِ وَفَقَّهَ لَجَوَابِ يَسْلَمُ مَعَهُ دِينُهُ وَعَرْضُهُ، وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ بِالتَّقِيَّةِ. إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَالَ: مَنْ عَابَ وَاحِداً مِنْهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، أَيْ مَنْ عَابَ وَاحِداً مِنْهُمْ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع). وقال في الثانية: مَنْ عَابَهُمْ أَوْ شَتَمَهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَدْ صَدَقَ؛ لِأَنَّ مَنْ عَابَهُمْ فَقَدْ عَابَ عَلِيًّا (ع)؛ لِأَنَّهُ أَحَدُهُمْ، فَإِذَا لَمْ يَعْصِ عَلِيًّا وَلَمْ يَذْمِهِ فَلَمْ يَعْصِهِمْ وَإِنَّمَا عَابَ بَعْضَهُمْ، وَلَقَدْ كَانَ لِحَزْقِيلِ الْمُؤْمِنِ مَعَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ وَشَوْا بِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ مِثْلَ هَذِهِ التَّوْرِيَّةِ، كَانَ حَزْقِيلُ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَنُبُوَّةِ مُوسَى، وَتَفْضِيلِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) عَلَى جَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ، وَتَفْضِيلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ع) وَالْخِيَارِ مِنَ الْأَئِمَّةِ (ع) عَلَى سَائِرِ أَوْصِيَاءِ النَّبِيِّينَ، وَمِنَ الْبِرَاءَةِ لِرَبُوبِيَّةِ فِرْعَوْنَ، فَوُشِيَ بِهِ الْوَاشُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَالُوا: إِنَّ حَزْقِيلَ يَدْعُو إِلَى مَخَالَفَتِكَ، وَيَعِينُ أَعْدَاءَكَ عَلَى مَضَائِكَ (مُضَادَّاتِكَ)، فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: ابْنِ عَمِّي وَخَلِيفَتِي عَلَى مَمْلَكَتِي، وَوَلِيُّ عَهْدِي إِنْ فَعَلَ مَا قُلْتُمْ فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ عَلَى كُفْرِهِ لِنِعْمَتِي، وَإِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فَقَدْ اسْتَحَقَقْتُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ لِإِثْرَاكُمْ

الدخول في مساءته، فجاء بحزقيل وجاء بهم فكاشفوه وقالوا: أنت تجحد ربوبيّة فرعون الملك وتكفر نعماءه، فقال حزقيل: أيّها الملك هل جرّبت عليّ كذباً قطّ؟ قال: لا. قال: فامثالهم من ربّهم؟ قالوا: فرعون. قال: ومن خالقكم؟ قالوا: فرعون. قال: ومن رازقكم الكافل لمعاشكم والدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال حزقيل: أيّها الملك فأشهدك وكلّ من حضرك أنّ ربّهم هو ربّي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومصلح معائشهم هو مصلح معائشي، لاربّ لي، ولاخالق، ولارازق غير ربّهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك أنّ كلّ ربّ وخالق ورازق سوى ربّهم وخالقهم ورازقهم فأنّا بريء منه ومن ربوبيّته، وكافر بالهيّته. يقول حزقيل هذا وهو يعني أنّ ربّهم هو الله ربّي، ولم يقل: إنّ الذي قالوا هم إنّ ربّهم هو ربّي، وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره، وتوّهّموا أنّه يقول: فرعون ربّي وخالقي ورازقي.

فقال لهم فرعون: يا رجال السوء ويا طلاب الفساد في ملكي، ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمّي وهو عضدي، أنتم المستحقّون لعذابي لإرادتكم فساد أمري، وإهلاك ابن عمّي، والفتّ في عضدي.

ثمّ أمر بالأوتاد، فجعل في ساق كلّ واحد منهم وتدّاً، وفي عضديه وتدّاً، وفي صدره وتدّاً وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشقّوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُّوهُ﴾ لَمَّا وشوا به إلى فرعون ليهلكوه، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهم الذين وشوا بحزقيل إليه لَمَّا أوتد فيهم الأوتاد، ومشط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط»^١.

وختاماً نقول: قصّة مؤمن آل فرعون كانت مثلاً كبيراً لمؤمني هذه الأمّة ليعلموا

بأنَّ الشرف والعظمة التي وصل إليها كانت بسبب الثبات والاستقامة التي أبدأها في تدوينه، ووصل إلى هذه الدرجة التي أرادها الله تعالى له، ووصفه في القرآن الكريم، و بقي اسمه حسناً إلى يوم القيامة، وقال الرسول الكريم ﷺ: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب نجّار مؤمن آل ياسين، وحزبيل مؤمن آل فرعون، وعليّ بن أبي طالب مؤمن آل محمّد ﷺ وهو أفضلهم».

ثمّ بيّن الله تعالى سوء العذاب الذي حاق بهؤلاء الأشقياء من آل فرعون بقوله تعالى:

إشدة عذاب قوم فرعون في كلّ غدوّ وعشيّ

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ * أَدْخِلُوا
الْفِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

و لهذا نرى ظهور السياق في ارتباط الآيتين السابقة والحاضرة، ﴿وَأَنَّ النَّارَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ بيان لسوء العذاب، فرفع النار بدل من قوله: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أو خبر مبتدأ معروف كأنما يقال: ما سوء العذاب، فيقال: هو النار. ويمكن أن تكون النار مبتدأ وخبره ﴿يُعْرَضُونَ﴾ والمعنى أنّ آل فرعون يعرضون على النار في الدنيا في قبورهم صباحاً وعشيّاً وهي كناية.

وتقديم النار للاعتناء والتنبيه على شدّتها، والتهويل من شدّة العذاب في قبور الدنيا. والعرض إظهار الشيء، وإبرازه حتى يراه الذي يظهر له. كما يقال: عرضت الكتاب على ناظره. فيعرضون على النار لينالهم من المهاول وعذابها. والغدوة والعشيّ كناية عن الدوام والتوالي من غير انقطاع مادامت الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي على الدوام.

و يظهر من ذكر الغدوة والعشيّ أنّ لأهل البرزخ نسبة ما إليها. فكأنّهم لم ينقطعوا عن الدنيا بالكلّيّة.

و في تفسير علي بن إبراهيم قال: ذلك في الدنيا قبل القيامة، وذلك أنَّ القيامة لا يكون فيها غدوٌ وعشيٌّ؛ لأنَّ الغدوَّ والعشيَّ إنما يكون في الشمس والقمر، وليس في جنان الخلد ونيرانها شمس ولا قمر.^١

هذا حالهم في قبور الدنيا وفي الآخرة، ويوم تقوم الساعة فيؤمر ويقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي أغلظه.

﴿أَدْخِلُوا﴾ بقطع الهمزة وفتحها وكسر الخاء، والخطاب للملائكة، وآل فرعون، مفعول له وقرئ بضم الهمزة ووصلها وضم الخاء، ونصب الآل حينئذ لنداء، بمعنى أنَّ الله يأمرهم بذلك، أي أَدْخِلُوا يا آل فرعون أَشَدَّ الْعَذَابِ.

و في الميزان: أنَّ الآية صريحة أولاً؛ في أنَّ هناك عرضاً على النار ثمَّ إدخالاً فيها، والإدخال أَشَدَّ من العرض.

وثانياً: في أنَّ العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال، وهو عذاب البرزخ وهو عالم متوسط بين الموت والبعث.

وثالثاً: أنَّ التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد، وهو نار الآخرة، لكن البرزخيين يعذبون بها من بعيد، وأهل الآخرة بدخولها.^٢

و في الكافي: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمد بن عثمان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن أرواح المشركين، فقال: «فى النار يعذبون، يقولون: ربَّنَا لا تقم لنا الساعة، ولا تنجز لنا ما وعدتنا، ولا تلحق آخرنا بأولنا».

عده من أصحابنا عن سهل بن زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نجران، عن مثني،

١. كتر الدقائق، ج ١١، ص ٣٩١.

٢. الميزان، ج ١٧، ص ٣٤٥.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ أرواح الكفار في نار جهنم يعرضون عليها، يقولون: ربّنا لا تقم لنا الساعة، ولا تنجز لنا ما وعدتنا، ولا تلحق آخرنا بأولنا».

محمد بن يحيى، عن محمد بن أحمد بإسناده له، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شرّ بئر في النار برهوت، الذي فيه أرواح الكفار».

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شرّ ماء على وجه الأرض ماء برهوت، وهو وادٍ بحضرموت يرد عليه هامّ الكفار وصداهم».

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن سنان، عن عمار بن مروان قال: حدّثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام، يقول: «إذا احتضر الكافر، حضره رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وجبرئيل وملك الموت عليه السلام، فيدنونه عليّ عليه السلام فيقول: يا رسول الله صلى الله عليه وآله، إنّ هذا كان يبغضنا أهل البيت فأبغضه، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، إنّ هذا كان الله ورسوله وأهل بيت رسوله. فأبغضه، ويقول جبرئيل: يا ملك الموت، إنّ هذا كان يبغض الله ورسوله وأهل بيت رسوله، فأبغضه وأعنف عليه. فيدنونه ملك الموت، فيقول: يا عبد الله أخذت فكاك (رهانك؟) أخذت أمان برآءتك؟ تمسّك بالعصمة الكبرى في الدنيا.

يقول: لا. فيقول: أبشر، يا عدوّ الله بسخط الله عزّ وجلّ وعذاب النار، أمّا الذي كنت تحذره فقد نزل بك، ثمّ يسأل نفسه سلّاً عنيفاً، ثمّ يوكل بروحه ثلاثمائة شيطان كلّهم ييزق في وجهه، ويتأدّى بروحه، فإذا وضع في قبره فتح له باب من أبواب النار فيدخل عليه من قيحها ولهبها»، والحديث طويل أخذت منه موضع الحاجة.

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبي عيسى، عن الحسن بن عليّ، عن غالب بن عثمان، عن بشير الدهان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «يجيء الملكان منكر و

نكير إلى الميِّت حين يُدفن... إلى أن قال: فإذا كان الرجل كافراً دخلاً عليه، وأقيم الشيطان بين يديه عيناه من نحاس، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرجل الذي قد خرج من بيض ظهرائيك؟ فيقول: لأدري، فيخيلان بينه والشيطان، فيسلط عليه في قبره تسعة وتسعين تيناً لو أنّ تيناً واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شجراً أبداً، ويفتح له باب إلى النار ويرى مقعده فيها».

عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن محمد بن الحسن بن شمعون، عن عبد الرحمن، عن عبد الله بن القاسم، عن أبي بكر الحضرمي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله، من المسؤولون في قبورهم؟ قال: «من محض الإيمان ومن محض الكفر». قال: قلت: فبقية هذا الخلق؟ قال: «يلهي والله عنهم ولا يعابهم». قال: قلت: وعمّا يسألون؟ قال: «عن الحجة القائمة بين أظهركم، فيقال للمؤمن: ما تقول في فلان بن فلان؟ فيقول: ذلك إمامي. فيقال له: نعم أنام الله عينيك. ويفتح له باب من الجنة، فما يزال يتحفه من روحها إلى يوم القيامة، ويقال للكافر، ما تقول في فلان بن فلان؟ قال: فيقول: قد سمعت به وما أدري ما هو؟ قال: فيقال له: لادريت، قال: ويفتح له باب من النار، فلا يزال يتحفه من حرّها إلى يوم القيامة».

محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن إبراهيم ابن أبي البلاد عن بعض أصحابه، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «يقال: للمؤمن في قبره: من ربك؟ - إلى أن قال: - ويقال للكافر: من ربك؟ فيقول: الله ربّي. فيقال: من نبيك؟. فيقول: محمد نبيّ، فيقال: ما دينك؟. فيقول، الإسلام ديني. فيقال: من أين علمت ذلك؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قفلته، فيضربانه بمرزبة لواجتمع عليه الثقلان الإنس والجنّ لم يطيقوها قال: فيذوب كما يذوب الرصاص، ثمّ يعيدان فيه الروح فيوضع قلبه بين لوحين من نار، فيقول: يا ربّ، آخر قيام الساعة». عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد وسهل بن زياد وعليّ بن إبراهيم، عن أبيه،

جميعاً عن ابن محبوب، عن عليّ بن رثاب، عن ضريس الكناسي، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إنَّ لله تعالى ناراً في المشرق خلقها ليسكنها أرواح الكفار، ويأكلون من زقومها، ويشربون من حميمها ليلهم، فإذا طلع الفجر هاجت إلى وادٍ باليمن يقال له: برهوت، أشدَّ حرّاً من نيران الدنيا، كانوا فيه يتلاقون ويتعارفون، فإذا كان المساء عادوا إلى النار فهم كذلك إلى يوم القيامة».

وفي مجمع البيان: وعن نافع، عن ابن عمر، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة».^١

التحاجج والتخاصم بينهم عذاب من الله تعالى عليهم

﴿وَإِذِيتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾

من أشدّ العذاب توبيخاً وتوقيعاً في أهل النار وقوع التحاجج والتخاصم بينهم. ويذكر الله سبحانه ﴿وَإِذِيتَحَاجُّونَ﴾ بتقدير «اذكر» يا رسول الله كما هو الشأن في نظائر هذه الظرفيّة في الكلام المجيد، اذكر الوقت الذي يتحاجّ فيه أهل النار في النار الأتباع والرؤساء. وظاهر السياق وقوع هذا التحاجج بين آل فرعون ورؤسائهم وأتباعهم، ولعلّه يدلّ على هذا تغيير السياق في قوله بعد: ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الرؤساء المظهرون الكبر باطلاً ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ معاشر الرؤساء «تبعاً» جمع تابع كحذم جمع خادم وحرس جمع حارس.

وفي القاموس: التبع محرّكة: التابع. يكون واحداً وجمعاً، والمعنى أتباعاً على الكفر بالله في الدنيا ممثّلين أو امركم، مجيبين لما تدعوننا إليه، ومسارعين في محبّتهم في الدنيا، ولولا أنتم لكنّا في الدنيا مؤمنين، ولا يصيبنا اليوم هذا البلاء والعذاب، ولعلّ هذا مبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ هم أنتم حاملون عَنَّا اليوم قسطاً من النار و بعضاً من العذاب الذي نحن فيه إن لم تكونوا قادرين على الإغناء عن الجميع؟ أنتم الرؤساء والكبراء لنا في الدنيا وكنا لكم تبعاً، ويلزم الرئيس الدفع عن أتباعه ومنقاده.

فهل تكفوننا في المضائق والحوائج، وتنصروننا في الشدائد؟ وهل شدة أشد مما نحن فيه؟ وهذا مآركز في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبرائهم ومتبوعهم من دون الله، فيظهر هذا المركوز منهم يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا يغني فيه نفس عن نفس شيئاً، والأمر يومئذٍ لله، وهذا تخجيل واستهزاء للرؤساء ومستكبريهم.

و في مصباح شيخ اللطافة خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام خطب بها يوم الغدير وفيها يقول عليه السلام: «و تقربوا إلى الله بتوحيده وطاعة من أمركم أن تطيعوه» وَلَا تَمَسُّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ «ولا يخلج بكم الغي فتضلوا عن سبيل الرشاد باتباع أولئك الذين ضلوا وأضلوا، قال عز من قائل في طائفة ذكرهم بالذم في كتابه: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ إلى قوله: وقال تعالى: ﴿وَإِذِيتَحَاوُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أفتردون الاستكبار ماهو؟ هو ترك الطاعة لمن أمروا بطاعته، والترفع على من ندبوا إلى متابعتهم، والقرآن ينطق من هذا عن كثير، إن تدبره متدبر زجره ووعظه»^١.

[يأس المستكبر عن الدفع والإغناء]

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾

و لكنّهم يجيبون يائسين عن الدفع والإغناء بأنهم مخذولون مأخوذون في النار كالضعفاء. ﴿إِنَّا كُلٌّ واقعون فيها﴾ ولو قدرنا لأغنيا أنفسنا، ودفعنا العذاب عن نفوسنا، وقد طاحت الأسباب وسقطت عنا ما كنّا نتوهم لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة. فنحن الجميع سواء.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ تثبت لحكم الله وقضائه بين عباده وكلّ مأخوذ بسوء عمله، فهو يعاقب من الشرك به وعبد معه غيره، فلا يتحمل أحد عن أحد عقاباً ولاجزاء. بل أسكن الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فلا أهل النار من العذاب والنار خارجون، ولا أهل الجنة من النعيم منتقلبون، ولا مبدّل لحكم الله، ولاقوة ولاقدرة لنا اليوم حتى نغني عنكم شيئاً من العذاب.

[طلب أهل النار من الله التخفيف عنهم]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾

تشير الآية الكريمة إلى وقوع الكلام بين أهل جهنم وخزنته مضافاً إلى وقوع التحاجج والتخاصم بينهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الأتباع والمتبوعين لخزنتها وقوامها الذين يتولون عذاب أهلها من الملائكة الموكلين بها استغاثة بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء، ورجاء أن يجدوا من عندهم فرجاً، وأضيفت الخزنة إلى جهنم ولم يقل «لخزنتها» لأنّ في ذكر جهنم تهويلاً وتعظيماً. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ بطمع أن يقع منهم هذا الدعاء وبرجاء استجابة الربّ لدعائهم وهم الملائكة ودعاؤهم مستجاب. وإنّما سألوا هذا الدعاء من الخزنة لأنّهم يائسون من أن يستجاب دعاؤهم وسيتدعون هذا الدعاء لشدة فظعهم، وجزعهم، وعدم صبر لهم على شدة العذاب لاطمئناً في التخفيف، فإنّهم يعلمون بالضرورة أنّ عقابهم غير منقطع وغير مخفّف عنهم. ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ واحداً، ولايوم ولاليل في النار، ولعل المراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه.

استخفاف واستهزاء الخزنة بأهل النار

﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

﴿قَالُوا﴾ قال الخزنة استخفافاً واستهزاءً لهم. ﴿أَوْ لَمْ تُكُ تَأْتِيكُمْ﴾ في الدنيا
﴿رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلائل على صدقهم، والحجج على توحيد الله، ووجوب
إخلاص العبادة له. فتوحدوه وتؤمنوا به وتبشروا من الشرك وعبادة غيره؟ ﴿قَالُوا
بَلَى﴾ قد جاءتنا الرسل بالبيّنات ﴿فَكَذَّبْنَاهُمْ﴾ وجحدنا نبوتهم وأنكرنا بيّناتهم، كما
نطق به قوله تعالى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ قالت الخزنة: إذا اعترفتم بهذا فادعوا ربكم بما لا ينفعكم، فلم
يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتاً ولانقياً، بل ردّوهم إلى أنفسهم إشارة
إلى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضياع، فإنّه دعاء مخاط بالضلال غير مهتد
إلى هدف الإجابة، فلا ينفعهم ولا يستجاب لهم، بل يقال لهم: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ والجملة تفيد معنى التعليل بأنهم كافرون والكافرون لا يستجاب لهم

دعاء، فَإِنْ كَفَرَهُمْ يَمْنَعُ عَنْ وَقُوعِ الطَّلَبِ الْجَدِّي مِنْهُمْ لِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا، فَظَاهِرٌ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمِيلُونَ وَلَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى هَذَا الطَّلَبِ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ، فَقَدْ لَزِمَتْهُمْ صِفَةُ الْإِنْكَارِ، فَلَا تَدْعُ هَذِهِ الصِّفَةُ أَنْ يَطْلُبُوا جَدًّا مَا كَانُوا يَنْكُرُونَهُ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ أَقْنَوْا بِالْعَذَابِ بِالْمَعَانِيَةِ، وَانْقَطَعُوا إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَهِيَاهُ أَنْ يَدْعُوا وَيَطْلُبُوا دَعَاءً حَقِيقِيًّا وَطَلْبًا خَالِصًا مَعَ تَلَبُّسِهِم بِالْكَفْرِ وَالْوَبَالِ بِحَيْثُ لَا يَدْعُهُمْ كَفَرُهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا رَفْعَ الْعَذَابِ طَلْبًا مَبْرَمًا.

وَفِي الدَّرُوعِ الْوَاقِيَةِ لِابْنِ طَاوُسٍ، قَالَ:

ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ الْقَمِي فِي كِتَابِ زُهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَقد نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِئِيلُ وَهُوَ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ، وَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا قَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ: إِنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا دَخَلُوهَا وَرَأَوْا نَكَالَهَا، وَعَلِمُوا عَذَابَهَا وَعِقَابَهَا، كَمَا قَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا ظَنَنْتُكَ بِنَارٍ لَا تَبْقَى عَلَى مَنْ تَضَرَّعَ إِلَيْهَا، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى التَّخْفِيفِ عَمَّنْ خَشَعَ لَهَا، وَاسْتَسْلَمَ إِلَيْهَا تَلْقَى سَكَّانَهَا بِأَحْرَمًا لَدَيْهَا مِنْ أَلِيمِ النِّكَالِ، وَشَدِيدِ الْوَبَالِ يَعْرِفُونَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي ثَوَابٍ عَظِيمٍ، وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيُؤْمَلُونَ أَنْ يَطْعَمُوهُمْ أَوْ يَسْقُوهُمْ لِيُخَفَّفَ عَنْهُمْ بَعْضُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ قَالَ: فَيَحْسُ عَنْهُمْ الْجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْيِيونَهُمْ بِلِسَانِ الْاِحْتِقَارِ وَالتَّهْوِينِ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: فَيَرُونَ الْخَزْنََةَ عَنْدهُمْ وَهُمْ يَشَاهِدُونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمَصَابِ، فَيُؤْمَلُونَ أَنْ يَجِدُوا عَنْدهُمْ فَرْجًا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ قَالَ: فَيَحْسُ عَنْهُمْ الْجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْيِيونَهُمْ بَعْدَ خِيبةِ الْأَمَالِ ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعُوكُمُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ قَالَ: فَإِذَا يَسُّوْا مِنْ خَزْنَةِ جَهَنَّمَ رَجَعُوا إِلَى مَالِكٍ مُقَدِّمِ الْخَزَانِ، وَأَمَلُوا أَنْ يَخْلُصَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْهَوَانِ، كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَنَادَا يَا

مَالِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فيحبس عنهم الجواب أربعين سنة وهم في العذاب ثم يجيبهم، كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾ قال: فإذا ينسوا من مالك رجعوا إلى مولاهم رب العالمين الذي كان أهون شيء عندهم في دنياهم، وكان قد أثر كل واحد منهم عليه هواه مدة الحياة وكان قد قرّر عندهم بالعقل والنقل أنه أوضح لهم على الهداية سبل النجاة، وعرفهم بلسان الحال أنهم الملقون بأنفسهم إلى دار النكال والأهوال، وأن باب القبول يغلق عن الكفار بالممات أبد الآبدين، وكان يقول لهم في أوقات كانوا في الحياة الدنيا من المكلفين بلسان الحال الواضح المبين. هب إنكم ما صدقتموني في هذا المقال أما تجوزون أن أكون مع الصادقين، فكيف أعرضتم عني إعراض من يشهد بتكذبي وتكذيب من صدقني من المرسلين؛ وهلاً تحزّزتم من هذا الضرر المحذّر الهائل؟ أما سمعتم بكثرة المرسلين، و تكرار الرسائل ثم كرّر جلّ جلاله مواقفهم وهم في النار ببيان المقال، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فقالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيبقون أربعين سنة في ذلّ الهوان لا يجابون، وفي عذاب النار لا يكلمون، ثم يجيبهم الله جلّ جلاله ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ﴾ قال: فعند ذلك يأسون من كلّ فرج وراحة، وتغلق عليهم أبواب جهنّم، وتدوم عليه مآتم الهلاك والشهيق والزفير والصراخ والنياحة.^١

[نصرة الله تعالى لرسله في الدنيا]

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ﴾

﴿يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

استئناف كلام من جهته تعالى مسوق لبيان أن إصابة العذاب للكفرة الظالمين من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة، وهو أن شأننا المستمر أن نصر رسلنا والمؤمنين، ولذا أتى بلفظة «إِنَّا» ولام التأكيد.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما معنى نصر الرسل مع أن بعضهم قتله أعداؤه، ومثلوا به، وبعضهم قد همّ قومه بقتله، فكان أحسن أحواله أن يخلص حتى فارقه ناجياً بنفسه، ومنهم عيسى عليه السلام الذي رفع إلى السماء إذا أراد قومه قتله، فأين النصرة لرسل الله والمؤمنين بالله في الحياة الدائمة، وهؤلاء أنبياءه قد نالهم من قومهم ما قد علمنا، ونقول: النصر المعونة على العدو، ونصر الرسل بوجوه: نصر بالحجة والبرهان، ونصر بالغلبة في المحاربة بحسب ما يعلم الله تعالى من المصلحة وتقتضيه الحكمة، ونصر بالأنصاف والتأييد وقوة القلب، وربما يكون بإهلاك العدو، كما تحققت هذه الأمور للأنبياء والمؤمنين من قبل الله تعالى، فهم المنصورون بالحجة على من خالفهم، كما أنهم نصروا أيضاً بالقهر على من ناوأهم أو بإهلاك

عدّوهم، أو بإنجائهم مع من آمن معهم أو بالانتقام لهم، كما نصر يحيى بن زكريّا لما قتل حين قتل به سبعون ألفاً، فهم المنصّرون في الدنيا بأحد هذه الأنحاء وذكرهم باق في المجتمعات البشريّة وعزیز في ألسنة الأناسي بخلاف أعدائهم لانطماس ذكرهم، وفناء عزّهم وسلطانهم.

فأمّا نصر الله إياهم يوم القيامة، فهو إعلاء كلمتهم، وظهور حقّهم، وعلوّ منزلتهم، وإعزازهم بجزيل الثواب، وإذلال عدوّهم بعظيم العقاب.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ الأشهاد جمع شاهد كأصحاب وصاحب، أو جمع شهيد كأشهاد وشهيد، وأيتام ویتيم، وهم الذين يشهدون بالحقّ للمؤمنين وأهل الحقّ، وعلى المبطلين والكافرين بما قامت به الحجّة يوم القيامة، ومن الشهداء حفظة الملائكة والأنبياء والمؤمنين، كلّ على حسب درجاتهم. وفي هذه الشهادة سرور المحقّ وفضيحة المبطل في ذلك المجمع العظيم، والمحفل الكبير، وتخصيص الرسل والمؤمنين بالنصر يوم الشهادة ألذّوابهج عندهم، وإكرام عظيم، وتشريف كامل في حقّهم يوم المحشر عند حضور الجمع الهائل من أهل المشرق والمغرب.

لاينفع معذرت الظالمين يوم القيامة

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ لليوم الأول، ذلك يوم لاينفع الظالمين من المشركين وغيرهم، وهم الذين ظلموا أنفسهم أو غيرهم بارتكاب المعاصي التي يستحقّ بها دوام العقاب. ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ واعتذارهم، فالمعذرة والاعتذار واحد، ولاتنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار التكليف؛ فإنّ الآخرة دارالإلجاء إلى الاعتذار، والملجأ غير محمود على العمل الذي ألجئ إليه؛ لأنّ العمل ليس بداعي الحكمة إلى ما يمكنه أن يعمل، ولا يعلمه فيضمن الحمد على فعله.

أو يكون المعنى أنّ الاعتذار باطل، ولو أنّهم جاؤوا بمعذرة لم تكن مقبولة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإهانة والإذلال والابتعاد عن رحمة الله، والحكم عليهم بدوام العقاب. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الدار السيئة شرّ ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم، والعقاب الشديد.

فَقَسَّ حال الرسل والمؤمنين وعلوّ درجاتهم في ذلك اليوم من نصرالله لهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون، وحال هؤلاء الظالمين الذين حصلت لهم أمور ثلاثة لاينفعهم شيء من المعاذير، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار.

فانظر إلى حالهم من هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية. وحال الأنبياء والمؤمنين بتخصيصهم وتشريفهم بألطف إلهية ربوبية. ففي هذا اليوم يظهر أن سرور المؤمن - رزقنا الله مرافقهم - كوا يكون؟ وغموم الكافرين - أبعدنا الله منهم - إلى أين تبلغ؟

و في تفسير البرهان:

عن علي بن إبراهيم: أخبرنا أحمد بن إدريس، عن أحمد بن محمد، عن عمر بن عبدالعزيز، عن جميل، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت: قول الله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، قال: «ذلك والله في الرجعة، أما علمت أن أنبياء الله كثيرة لم يُنصروا في الدنيا وقُتلوا، وأُئتمَّ من بعدهم قوتلوا ولم يُنصروا... ذلك في الرجعة».

أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه في كامل الزيارات، قال: حدَّثني أبي عن سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن سنان، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: تلا هذه الآية ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ قال: «الحسين بن علي عليهما السلام قُتِلَ ولم يُنصر بعد» ثم قال: «والله لقد قُتِلَ الحسين عليه السلام ولم يُطَلَب بدمه بعد».

رجعة السيّد المعاصر، عن جعفر بن محمد بن مالك، قال: حدَّثنا محمد بن قاسم بن إسماعيل، عن علي بن خالد العاقولي، عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي، عن سليمان بن خالد العاقولي، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال: «الراجفة: الحسين بن علي عليه السلام. والرادفة: علي بن أبي طالب عليه السلام، وأوّل من ينشق عنه القبر وينفضّ عن رأسه التراب: الحسن بن علي عليه السلام في خمسة وسبعين ألفاً، وهو قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِجِ.

وقال علي بن إبراهيم أيضاً في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^١
الأشهاد الأئمة عليهم السلام.

وفي تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة:

ومعنى ذلك أنَّ الأَشْهَادَ جمع شاهد وهم الذين يشهدون بالحقِّ على الخلق المحقِّين والمبطلين، وهم الأئمة عليهم السلام؛ لأنَّهم الشَّهَدَاءُ على الناس يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^٢ فإذا كانوا هم الشَّهَدَاءُ على الناس، فهل ينفع الظالمين معذرتهم في ظلمهم لهم أم لا؟. وهو الحق؛ لأنَّه قال عقيب ذلك: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِجِ﴾^٣.

١. البرهانه، ج ٤، ص ١٠١.

٢. البقرة، ١٤٣.

٣. تأويل الآيات الظاهرة، ج ٢، ص ٥٣٢.

اوراة بني إسرائيل الكتاب ا

﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ﴾ نسب البارئ - جلّ شأنه - إرسال موسى وإعطائه الهدى إلى ساحته المقدسة إحصاءاً لأمره ونبوته في قبال عناد فرعون وآله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ أعطيناه ما يهتدي به من النبوة التي هي أعظم المناصب الإنسانية، والتوراة التي فيها أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده ومعالم دينهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى التوراة التي تبقى معهم قزونا متطالة وميزاناً لهم خلفاً عن سلف.

[استفادة أولي الألباب عن الهداية]

﴿هُدًى وَذِكْرٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾

هُدًى بيان لأمر دينهم، وهداية لهم إلى ما تقتضيه الحكمة الإلهية لهم مع أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده. ﴿وَذِكْرٌ﴾ إرشاد وتذكير للذين لهم ألباب يفقهون بها، وعقول يعقلون بها، فيتذكرون لها هداهم الله إليه، وتخصيص ذوي الألباب والعقلاء بذلك؛ لأنهم الذين يتمكنون من الانتفاع به دون من لا عقل له. والهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً، وأما الذكرى، فهي ما يكون كذلك، وكتب الأنبياء مشتملة على هذين القسمين، بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة.

في تنجّز وعد الله تعالى

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

فإذا كان هذا شأننا بالنسبة إلى الرسل السابقين، وألطفنا في حقهم وفي حق المؤمنين لهم، وإعطاؤنا الهداية والكتب لهم، فاصبر أنت يا رسول الله، ويا نبينا الأكرم لأمر ربك وسبيلك، وتبليغ ما أمرت بتبليغه، وتحمل الأذى والمشقة في تكذيبهم إياك، ولا تحزن؛ لأنّ الله ناصرك وناصر من صدّقك وآمن بك، وأيقن بأنّ وعد الله من النصر في الدنيا والثواب والجنة لمن أطاعك، والنار والعقاب لمن عصاك في الآخرة حقّ منجز لا خلف له.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ واطلب المغفرة من ذنبك، إضافة المصدر أعني «الذنب» إمّا إلى الفاعل أو المفعول، فالأول بمعنى استغفر لذنبك الذي اقترفته وارتكبته وهو ﷺ مصون عن هذا الاقتراف، ومعصوم من هذا الارتكاب، فالخطاب له والمراد إمّا بتقدير أمتك، أو تعبّد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالدعاء والاستغفار لمزيد الدرجات، وضرورة هذا سنّة لمن بعده.

وللعامة الطباطبائي كلام لطيف في أواخر المجلّد السادس من الميزان نعتذر عن.

نقله؛ لأنه مفضل ولا ينبغي تلخيصه، ولا يسعنا المجال لنقله بطوله وتفصيله فليراجع إليه.^١
 واما الثاني، اعنى اضافة المصدر إلى المفعول بمعنى استغفر لذنب من اقترفه
 بالنسبة اليك وتجاسر في حقك واذيك وقد اشار إلى هذا سيد اعلام الهدى المرتضى
 في كتابه تنزيه الانبياء.^٢

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ نَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى واعترف بنعمه وسبح وصل بالحمد والشكر
 منك لربك ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ من زوال الشمس إلى الليل. وَالْأَبْكَارِ من طلوع الفجر الثاني
 إلى طلوع الشمس، ولعل هذا كناية عن المداومة في جميع الأوقات، وتعليم الناس
 بالمواظبة على ذكر الله وأن لا يفتتر اللسان عنه، ولا يغفل القلب حتى يدخل في زمرة
 الملائكة الذين قال سبحانه في وصفهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^٣
 وفي المجمع: روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«قال الله جلّ جلاله: يا ابن آدم، اذكرني بعد الغداة ساعة، وبعد العصر ساعة
 أكفك ما أهمك». وفي هذا تنبيه على أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين:
 التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي. والأول مقدّم على الثاني بحسب الرتبة
 الذاتية، فوجب أن يكون مقدّماً عليه في الذكر، كما قالوا في علم الأخلاق بتقدّم
 التخلية على التحلية، فالآية تذكّر السالكين إلى الله تعالى بالاستغفار للذنوب أولاً
 وهو التوبة عما لا ينبغي، وبالتسبيح بحمد الربّ ثانياً، وهو الاشتغال بما ينبغي.
 قد مرّ الكلام مفصلاً في أوّل السورة حال المجادلين والمكذّبين بآيات الله. ونبه
 سبحانه في هذه الآية على الداعية التي تحمّل أولئك الكفار على المجادلة، فقال
 سبحانه.

١. الميزان، ج ٦، ص ٣٨٣ (طبعة طهران).

٢. تنزيه الانبياء، ص ١١٧ (منشورات الرضي، قم).

٣. الأنبياء: ٢٠.

[عاقبة مجادلة الكافرين للمؤمنين بغير حجة]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يقول الله تبارك وتعالى مستعظفاً ومتلطفاً لنبيّه الأكرم، ومطيباً نفسه المقدّسة بتأييد وعد النصر المتقدّم في الآية السابقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويخاصمون في دفع وإبطال آياتِ الله التي أتيت بها يا رسول الله من عند ربّك ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ وبغير حجة جاءتهم من عند الله حتى يخاصموك بتلك الحجة، ويتسلّطون بها على إنكار كلّ مذهب يخالف مذهبهم، فلا يحزنك جدالهم، وطب نفساً من ناحيتهم. ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ يتكبرون من أجله من اتّباعك، وعن قبول الحقّ الذي أتيتهم به حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك الله بها. ومقتضى النفي والاستثناء حصر ما في صدورهم بالكبر، أي ليس في صدورهم إلا الكبر، ومنشأ الجدل في آيات الله وعدم الخضوع لله ولرسله هذا الداء المهلك، أعني التكبر والترفع عن التفكير؛ خوفاً من أنّهم لو سلّموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت أمرك ونهيك، وهذا هو السبب الوحيد الموجب لمجادلتهم في التكبر والترفع، وليس عاملهم في ذلك طلب الحقّ أو

الارتباب في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق، ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها.

﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ الجملة صفة للكبر، والضمير راجع إليه، والمعنى ما هم ببالغي ذلك التعظم والتكبر بذكر السبب واعتبار المسبب، أي ما هم ببالغي إبطال الحق، ومحق الدعوة الحقّة. فإنّ الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائله؛ لأنّه من فضل الله يؤتیه من يشاء، ويرفع به من يشاء، وما هو بالأمر الذي يحصل بالأمانيّ والكبر إنّما يعملّه المتكبر بداعي أن يعظم حاله، وهؤلاء يصير حالهم إلى الإذلال والتحقير بكفرهم، فلا يبلغون ما في صدورهم من مقتضى كبرهم.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ واستجر به (والتجئ) إليه من شرّ هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هو السميع لدعاء عباده، ولما يقول هؤلاء المجادلون في ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ البصير بصير بما عباده فيه من شدّة أو رخاء، وبصير بهؤلاء المجادلين، وبما يعملونه من شرورهم، ولا يخفى عليه شيء من ذلك. وفي هذا وعد بكفاية شرّهم، وأنّ الاستعاذة والالتجاء إلى الله تعالى من شرور المتكبرين المتعظمين، ليست مخصومة بالرسول، بل هو تعليم للجميع وقد التفت إلى الآية السابقة في السورة المباركة من قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

إجواب مجادلة الكافرين بخلق الناس

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

مجادلة الكافرين في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها، فَحَجَّوْا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرّين بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره مع أنّ خلق الناس بالقياس إليه شيء، قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر. فإن ينكرون خلق الناس ولا يقبلونه، أفلا ينظرون إلى خلق السموات والأرض لخلقها، وإيجادها، وابتداعها، وإنشائها من غير شيء أعظم في النفوس وأهول في الصدور من خلق الناس وإن كان خلقهم عظيماً؟ لما فيه من الحياة والحواس المهيأة لأنواع مختلفة من الإدراكات إلّا أنّ أمر السموات والأرض أعظم وأعظم. وخلق الناس ابتداءً وإن كان عظيماً ولكنّه أعظم و أبهر من البعث والإعادة ثانياً.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لإبائهم عن التفكّر والنظر ولا يتواضعون للاستدلال على صحّة هذا الأمر، وقبول ما يعترف به الفطرة السليمة. وهذا هو الجدل في آيات الله بغير سلطان ولا حجة. وليس هذا الجدل إلّا بمجرّد الحسد، والجهل، والكبر، والتعصّب، وفرط الغفلة وآتباع الأهواء.

[عدم تساوي العمى والبصير]

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾

إنّ في خلق السماوات والأرض لآيات لمن يتواضع ويتدبّر ويعترف بأنّه لا بدّ لها من خالق وهو الله. ولكنّ الكافر المعاند كالأعمى الذي لا يبصر شيئاً، فهو لا يتأمّل حجج الله بعينه فيتدبّرّها، ويعتبرها، فيعلم وحدانيّته، وقدرته على خلق ما شاء من شيء ويؤمن به ويصدّق.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ هل يتساوى مثل هذا الأعمى والبصير الذي يرى بعينه ما شخص له ويبصره. وهذا مثل للمؤمن الذي يرى بعينه وببصره وبصيرته حجج الله، فيتفكّر فيها، ويتّعظ ويعلم ما دلّت عليه من توحيد صانعه، وعظيم سلطانه، وقدرته على خلق ما يشاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ فكما لا يستوي الكافر والمؤمن والأعمى والبصير، فلا يستوي الذين آمنوا بالله ورسله المطيعون لربّهم، ولا المسيء الكافر برّبه، والعاصي له، المخالف أمره. وزيادة «لا» في ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ للتأكيد، وأنّ المقصود الأهمّ عدم استوائه مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الخطاب توبيخي وهو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور ﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس حجج الله فتعتبرون وتتعتظون بها. مع أنكم لو تذكّرتُم آياته، واعتبرتم لعرفتُم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحيائه مَنْ فنى من خلقه من بعد الفناء، وإعادتهم من بعد وفاتهم، وعلمتم قبح شرككم مَنْ تشركونه في عبادة ربكم.

اعدم علم الناس بدين يوم القيامة

﴿٥١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إنَّ الساعة التي يحيي الله فيها الموتى للثواب والعقاب لآتية وجائية أيها الناس، لا ريب ولا شك في مجيئها، فأيقنوا بمجيئها، وبأنكم مبعوثون من بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم، والإيتان بأنَّ في أول الجملة، ولام التأكيد في الخبر ﴿لَآتِيَةٌ﴾ شاهد على هذا التأكيد.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يخضعون للآيات والحجج الداعية إلى الإيمان والاعتراف بها وحيث إنَّ الساعة آتية لا ريب فيها ولا شبهة، فأرشد الله تعالى عباده إلى ماهي الوسيلة إلى السعادة في دارالخلود، فأمر رسوله الكريم ببلاغ قوله تعالى:

إِنَّ يَجِيبَ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾ أيها الناس أدعوني بإخلاص وإيمان، واعبدوني خالصاً في العبادة من دون عبادة من دوني من الآوثان والأصنام ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أجب دعاءكم إذا اقتضت المصلحة إجابتكم، ومن يدعوالله ويسأله فلا بد أن يشترط المصلحة إما لفظاً أو إضماراً وإلا كان قبيحاً؛ لأنه إذا دعا بما يكون فيه مفسدة، ولا يشترط انتفاءها كان قبيحاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي يتكبرون ويتعظمون عن عبادتي، والإخلاص فيها، ولا يخضعون لدعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين أذلاء. والدّخور: الذلّة. وفي الآية دلالة على عظم قدرالدعاء عندالله تعالى، وعلى فضل الانقطاع إليه، وأنّ الدعاء عبادة، فينبغي النظر إلى الروايات الواردة في الآية الشريفة، والمناسبة لها. فنقول بعون الله تبارك وتعالى:

في تفسير علي بن إبراهيم رحمه الله:

حدّثني أبي، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رثاب، عن ابن عينية، عن أبي

عبد الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيَمَنَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْمُرَهُ أَنْ يَدْنُو مِنْهُ، يَعْنِي مِنْ رَحْمَتِهِ فَيَدْنُو حَتَّى يَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَعْرِفُهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، يَقُولُ لَهُ: أَلَمْ تَدْعُنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا بِكَذَا وَكَذَا، فَأُجِبْتُ دَعْوَتَكَ؟ أَلَمْ تَسْأَلْنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَأَعْطَيْتَ مَسْأَلَتَكَ؟ أَلَمْ تَسْتَغْتِ بِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَبِكَ ضَرَّ كَذَا وَكَذَا فَكَشَفْتُ ضَرَّكَ، وَرَحِمْتُ صَوْتَكَ؟ أَلَمْ تَسْأَلْنِي مَالًا فَمَلَكَتْكَ؟ أَلَمْ تَسْتَخْدِمْنِي فَأَخْدَمْتُكَ؟ أَلَمْ تَسْأَلْنِي أَنْ أَزُوجَكَ فَلَانَةَ وَهِيَ مَنِيْعَةٌ عِنْدَ أَهْلِهَا فَزَوَّجْنَاكَهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ الْعَبْدُ: بَلَى يَا رَبِّ، أَعْطَيْتَنِي كَمَا سَأَلْتُكَ، وَكُنْتُ أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فَإِنِّي وَاهِبٌ لَكَ مَا سَأَلْتَنِيهِ الْجَنَّةَ لَكَ مَبَاحًا أَرْضِيَّتَكَ؟ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ أَرْضَيْتَنِي وَقَدْ رَضِيتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: عَبْدِي، إِنِّي كُنْتُ أَرْضَى أَعْمَالَكَ، وَإِنَّمَا أَرْضَى لَكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، فَإِنَّ أَفْضَلَ جَزَائِي عِنْدَكَ أَنْ أَسْكُنَكَ الْجَنَّةَ. وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي عَمِيرٍ، عَنْ جَمِيلٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ لَهُ رَجُلٌ - جَعَلْتُ فِدَاكَ - إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وَإِنَّا نَدْعُو فَلَا يَسْتَجَابُ لَنَا، قَالَ: «لَا تَكُمُ لَا تَقْوَنَ لِلَّهِ بَعْدَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وَاللَّهُ لَوْ وَفَيْتُمْ لِلَّهِ لَوْفِي اللَّهُ لَكُمْ». وَفِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: «مَنْ أَعْطَى الدَّعَاءَ لَمْ يَحْرَمْ الْإِجَابَةُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وَفِي مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ، خُطْبَةٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ، خُطِبَ بِهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَفِيهَا: «وَأَكْثَرُوا فِيهِ التَّضَرُّعَ وَالدَّعَاءَ، وَمَسْأَلَةَ الرَّحْمَةِ وَالْغُفْرَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ سَيَجِيبُ لِكُلِّ مَنْ دَعَاهُ، وَيُورِدُ النَّارَ مِنْ عَصَاهُ، وَكُلَّ مُسْتَكْبِرٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ».

كتاب الاحتجاج للطبرسي عليه السلام، عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل، وفيه قال ألسنت تقول: يقول الله تعالى:

وَنَبِيٌّ أَسْتَجِبُ لَكُمْ» وقد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له، والمطيع على عدوه فلا ينصره؟ قال: «و يحك ما يدعوه أحد إلا استجاب له. أما دعآؤه مردود إلى أن يتوب إليه. وأما المحق، فإنه إذا دعاه استجاب له، عنه البلاء من حيث لا يعلمه، أو أخرله ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله عليه أن يدعوه فيما لا يدري أصواب ذلك أم خطأ؟»

أدعية الصيغة السجادية: «و قُلْتُ: «أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَنْ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»
بت دعائك عبادة وتركه استكباراً، وتوعدت على تركه دخول جهنم
«.

قرب الإسناد للحميري: بإسناده إلى أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ما أعطى الله أمتي وفضلهم به على سائر الأمم، أعطاهم ثلاث خصال لم نبي... إلى قوله: - كان إذا بعث نبياً قال له: إذا أحزنك أمر تركه فادعني لك، وإن الله تعالى، أعطى أمتي ذلك حيث يقول: «أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ».
كتاب جعفر بن محمد الدورستي بإسناده إلى حفص بن غياث النخعي قال: الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام يقول: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه تعالى شيئاً اه فليأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا عند الله عز وجل، فإذا علم بي ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه».

ي مجمع البيان: وقد روى معاوية بن عمار، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الله فذاك، ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعاً كان أحدهما أكثر صلاة

الْآخِلَ أَكْثَرُ دَعَاءٍ فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ حَسَنٍ». قُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ، وَلَكِنْ أَتَيُّهُمَا
فَضْلُ؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمَا دَعَاءٌ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»
لِي آخِرُ الْآيَةِ؟ وَقَالَ: «هِيَ الْعِبَادَةُ الْكُبْرَى».

و روي عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: «هو الدعاء وأفضل
لعبادة الدعاء».

و في أصول الكافي بإسناده إلى المعلى بن خنيس: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال
رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: من استذلَّ عبدي المؤمن فقد بارزني بالمحاربة -
إلى قوله - عز وجل: وإنه ليدعوني في الأمر فأستجيب له بما هو خير له».

علي بن إبراهيم عليه السلام عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي
جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء».

محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل وابن محبوب،
جميعاً عن حنان بن سدير، عن أبيه، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟
فقال: «و ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يُسأل ويُطلب ممَّا عنده، وما
من أحد أبغض إلى الله عز وجل ممَّن يستكبر عن عبادته ويسأل ما عنده».

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته
يقول: «ادع ولا تقل: قد فرغ من الأمر، فإنَّ الدعاء هو العبادة. إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقال: ﴿أَدْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾».

عَدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن سعيد، عن
النضر بن سويد، عن القاسم بن سليمان، عن عبيد بن زرارة، عن أبيه، عن رجل،
قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الدعاء هو العبادة التي قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» - الآية - ادع الله عز وجل ولا تقل: إن الأمر قد فرغ منه». قال زرار: إنما يعني لا يمنعك إيمانك بالقضاء والقدر إن تبالغ بالدعاء، وتجتهد فيه.

علي بن إبراهيم عن أبيه، عن عثمان بن عيسى، عن حماد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: آيتان في كتاب الله عز وجل أطلبهما فلا أجدهما. قال: «و ما هما؟» قلت: قول الله عز وجل: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فندعوه ولا نرى إجابة قال: «أفترى الله عز وجل أخلف وعده؟». قلت: لا، قال: «فم ذلك؟» قلت: لا أدري. قال: «لكنني أخبرك، من أطاع الله عز وجل فيما أمره ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه». قلت: وما جهة الدعاء. قال: «تبدأ فتحمد الله وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم تذكر ذنوبك فتقر بها، ثم تستعيز منها، فهذا جهة الدعاء». والحديث طويل أخذ منه موضع الحاجة.

محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن محمد بن مسلم، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام: إن المدحة قبل المسألة، فإذا دعوت الله عز وجل فمجده».

قلت: كيف أمجده؟ قال: «تقول: يا من هو أقرب إلي من حبل الوريد، يا فعلاً لما يريد، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء».

الحسين بن محمد، عن معلّى بن محمد، عن الحسن بن علي، عن حماد بن عثمان، عن الحارث بن المغيرة، قال: أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أردت أن تدعو، فمجّد الله عز وجل واحمده، وسبحه وهللّه وأثن عليه وصلّ على محمد وآل محمد ثم سل تُعط».

أبو علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان عن عيص بن القاسم،

قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا طلب أحدكم الحاجة فليئين على ربّه، وليمدحه، فإنّ الرجل إذا طلب الحاجة من السلطان هياً له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجدوا الله العزيز الجبار، وامدحوه، وأنثوا عليه. تقول: يا أجود من أعطى، ويا خير من سُئِل، يا أرحم من استرحم، يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا من لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، يا من يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويقضي ما أحبّ، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى يا من ليس كمثله شيء، يا سميع يا بصير.

وأكثر من أسماء الله، فإنّ أسماء الله كثيرة، وصلّ على محمّد وآله، وقل: اللهم أوسع عليّ من رزقك الحلال ما أكف به وجهي، وأؤدي به عن أمانتي، وأصل به رحمي، ويكون عوناً لي في الحجّ والعمرة.

وقال -: إنّ رجلاً دخل المسجد فصلّى ركعتين، ثمّ سأل الله عزّ وجلّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: عجّل العبد ربّه. وجاء آخر فصلّى ركعتين ثمّ أنثى على الله عزّ وجلّ، وصلى على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله: سل تُعط. عده من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن عليّ أسباط، عن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من سرّه أن تستجاب دعوته فليطّيب مكسبه».

عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الله بن المغيرة، عن غير واحد من أصحابنا قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ العبد الوليّ لله سبحانه يدعو الله عزّ وجلّ في الأمر ينوبه، فيقول للملك الموكل به: اقض لعبدي حاجته ولا تعجلها، فإنّي أشتي أن أسمع نداءه وصوته، وأنّ العبد العدوّ لله ليدعو الله عزّ وجلّ في الأمر ينوبه، فيقال للملك الموكل به: اقض لعبدي حاجته وعجلها؛ فإنّي أكره أن أسمع نداءه وصوته قال: فيقول الناس: ما أعطي هذا إلّا لكرامته ولا منع هذا إلّا لهوانه».

محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن ابن محبوب، عن هشام بن

سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال المؤمن بخيرٍ ورجاءٍ ورحمةٍ من الله عزَّ وجلَّ ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء». قلت له: كيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة».

الحسين بن محمد عن أحمد بن إسحاق، عن سعدان بن مسلم، عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ المؤمن ليدعو الله عزَّ وجلَّ في حاجته، فيقول الله عزَّ وجلَّ: أخروا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه، فإذا كان يوم القيامة. قال الله عزَّ وجلَّ: عبد دعوتني فأخَّرتُ إجابتك وثوابك كذا وكذا، ودعوتني في كذا وكذا فأخَّرتُ إجابتك وثوابك كذا، قال: فيتمنَّى المؤمن أنَّه لم تُستجب له دعوة في الدنيا ممَّا يرى من حسن الثواب».

علي بن إبراهيم عليه السلام عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محبوباً حتى يصلَّى على محمد وآل محمد». علي بن محمد، عن ابن جمهور، عن أبيه، عن رجاله، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «من كانت له إلى الله عزَّ وجلَّ حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآل محمد، ثمَّ يسأل حاجته، ثمَّ يختم بالصلاة على محمد وآل محمد؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يقبل الطَّرفين ويدع الوسط إن كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه».

وفي الكافي: الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الوشاء، عن أبان بن عثمان، عن الحسن بن المغيرة أنَّه سمِعَ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ فضل الدعاء بعد الفريضة على الدعاء بعد النافلة، كفضل الفريضة على النافلة، قال: ثمَّ قال: أدعُه ولا تقل: قد فرغ من الأمر، فإنَّ الدعاء هو العبادة، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقال: «أدعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ» وقال: إذا أردت أن تدعوا لله عليه السلام، واحمدُه، وسبِّحْه، وهلِّلْه، وأثنِ عليه، وصلِّ

على النبي ﷺ ثم سَل تَغَطَّ.

و في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه مع سليمان المروزي حديث طويل فيه:

قال الرضا عليه: «يا جاهل، فإذا علم الشيء فقد أرادته؟ قال سليمان: أجل، قال: «فإذا لم يرد له لم يعلمه؟ قال سليمان: أجل. قال: «من أين قلت ذلك؟ وما الدليل على أن إرادته علمه؟ وقد يعلم ما لا يريد أبدأ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ شَيْئًا لَّنَدَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فهو يعلم كيف يُذهب به وهو لا يذهب به أبدأ». قال سليمان: لأنه قد فرغ من الأمر فليس يزيد فيه شيئاً. قال الرضا عليه: «هذا قول اليهود، فكيف قال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: سليمان: إنما عنى بذلك: إنه قادر عليه. قال: «أَفَعِدُّ مَا يَفِي بِهِ؟ فكيف قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ وقال عز وجل: ﴿يَمْنَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وقد فرغ من الأمر» فلم يحر جواباً.

و في كتاب الخصال: عن الوليد بن صبيح، عن أبي عبد الله عليه قال: كنتُ عنده جفنة من رُطْبٍ، فجاء سائل فأعطاه، ثم جاء سائل آخر فأعطاه، ثم جاء آخر فأعطاه، ثم جاء آخر فقال: «وسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا لَوْ كَانَ لَهُ مَالٌ يَبْلُغُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ثُمَّ شَاءَ أَنْ لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَسَمَهُ فِي حَقِّ فَعْلٍ، فَيَبْقَى لَا مَالُ لَهُ، فَيَكُونُ مِنَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يُرَدُّ دَعَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ». قال: قلت: جعلت فداك مَنْ هُمْ؟ قال: «رَجُلٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا فَأَنْفَقَهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: أَوْ لَمْ أَرْزُقْكَ؟ وَرَجُلٌ دَعَا عَلَى امْرَأَتِهِ وَهُوَ ظَالِمٌ لَهَا، فَيَقَالُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ أَمْرَهَا بِيَدِكَ؟ وَرَجُلٌ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ وَتَرَكَ الطَّلَبَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْزُقْنِي، فَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ لِلرِّزْقِ؟».

عن معاذ بن عمارة، عن أبي عبد الله عليه قال: «مَا مَعَاذُ مَنْ أُعْطِيَ ثَلَاثَةً لَمْ

يحرم ثلاثة: من أعطي الدعاء أُعطي الإجابة، ومن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكل أُعطي الكفاية، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ويقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ويقول: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ ﷺ فِي وصيَّته له: «يا علي، أربعة لأتردَّ لهم دعوة: إمام عادل، ووالد لولده، والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب، والمظلوم، يقول الله جلَّ جلاله: وعزَّتي وجلالي لأنتصرنَّ لك ولو بعد حين».

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى إجابته في دعوته، فلا تستصغرنَّ شيئاً من دعائه، فربَّما وافق إجابته وأنت لا تعلم». عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ خمسة لا يستجابُ لهم: رجل جعل الله بيده طلاقَ امرأته فهي تؤذيه وعنده ما يعطيها ولم يُخلِّ سبيلها، ورجل أبقَ مملوكه ثلاثَ مرَّاتٍ ولم يُبَّيعه، ورجل مرَّ بحائطٍ مائلٍ وهو مُقبِلٌ إليه ولا يسرع المشيَ حتى سَقَطَ عليه، ورجل أقرضَ رجلاً مالاً فلم يشهد عليه، ورجل في بيته وقال: اللهم ارزُقني ولم يطلب».

عن نوف عن أمير المؤمنين عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «يانوف، إياك أن تكونَ عَشَّاراً، أو شاعراً، أو شُرطيّاً، أو عريضاً، أو صاحب عرطيةٍ وهي الطنبور، أو صاحب كويةٍ وهو الطبل، فإنَّ نبيَّ الله ﷺ خرج ذاتَ ليلةٍ فنظر إلى السماء فقال: إنها الساعة التي لا تردُّ فيها دعوة إلاَّ دعوة عريضٍ، أو دعوة شاعرٍ، أو دعوة عاشقٍ، أو دعوة شرطيٍّ، أو صاحب عرطيةٍ، أو صاحب كويةٍ».

وفي كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى علي بن أسباط يرفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من قرأ مائة من القرآن من أيِّ القرآن شاء، ثم قال: يا الله سبعَ مرَّاتٍ فلو دعا على الصخرة لقلَّعها إن شاء الله».

و في كتاب التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال: «قال قوم للصادق عليه السلام: ندعو فلا يُستجاب لنا، قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه».

و في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى الحسن بن عليّ بن أبي حمزة الثمالي، عن أبيه، عن الصادق عليه السلام جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه، عن آبائه قال: «قال رسول الله ﷺ: حدّثني جبرئيل عن ربّ العزة جلّ جلاله أنّه قال: من علم أنّه لا إله إلا أنا وحدي، وأنّ محمداً عبدي ورسولي، وأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام خليفتي، وأنّ الأئمة من ولده حججي، أدخله الجنّة برحمتي، وأنجيه من النار بعفوي، وأبحت له جواري، وأوجب له كرامتي، وأتممت عليه نعمتي، وجعلته من خاصّتي وخاصّتي، إن ناداني لبيّته، وإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن سكت ابتدأته، وإن أساء رحمته، وإن فرّمتني دعوته، وإن رجع إليّ قبلته، وإن قرع بابي فتحته.

و من لم يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي، أو شهد بذلك ولم يشهد أنّ محمداً عبدي ورسولي، أو شهد بذلك ولم يشهد أنّ عليّ بن أبي طالب خليفتي، أو شهد بذلك ولم يشهد أنّ الأئمة من ولده حججي، فقد جحد نعمتي، وصغر عظمتي، وكفر بآياتي وكتبي، إن قصدني حجبته، وإن سألني حرّمته، وإن ناداني لم أسمع ندأه، وإن دعاني لم أستجب دعاءه وإن رجاني خيبتّه، وذلك جزاؤه منّي، وما أنا بظلام للعبيد». والحديث طويل أخذت منه موضع الحاجة.

و في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي خالد الكابلي، قال: سمعتُ زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «الذنوب التي تزد الدعاء سوء النية، وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضة حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله عزّ وجلّ بالبرّ والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القبول». والحديث طويل.

و في شرح الآيات الباهرة: قال محمد بن العباس عليه السلام: حدّثنا الحسين بن أحمد

المالكي، عن محمد بن عيسى، عن يونس بن عبد الرحمن، عن محمد بن سنان، عن محمد بن النعمان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، لَمْ يَكُنْ إِلَى أَنْفُسِنَا، وَلَوْ وَكَلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا لَكُنَّا كَبَعْضِ النَّاسِ وَلَكِنْ نَحْنُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»^١

وفي بحار الأنوار عن دعائم الإسلام: روي في كتاب التنبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه خطب في يوم الجمعة خطبة بلغة، فقال في آخرها: «أَيُّهَا النَّاسُ، سَبِّحْ مَصَائِبَ عَطَامِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا: عَالَمَ زَلٍّ، وَعَابِدَ مَلٍّ، وَمُؤْمِنَ خَلٍّ، وَمُؤْتَمِنَ عِلٍّ، وَغَنِيَّ أَقْلٍّ، وَعَزِيزَ دَلٍّ، وَفَقِيرَ اعْتَلٍّ» فقام إليه رجل فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، أنت القبلية إذا ما ضللنا، والنور إذا ما أظلمنا، ولكن نسألك عن قول الله تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فما بالنا ندعو ملايحاب؟ قال: «إِنَّ قُلُوبَكُمْ خَانَتْ بِثَمَانِ خِصَالٍ: أَوَّلُهَا: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمْ اللَّهَ فَلَمْ تُوَدُّوا حَقَّهُ كَمَا أُوجِبَ عَلَيْكُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْكُمْ مَعْرِفَتَكُمْ شَيْئاً. وَالثَّانِيَةِ: أَنْكُمْ آمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَفْتُمْ سُنَّتَهُ وَأَمْتَمَّ شَرِيعَتَهُ، فَأَيْنَ ثَمَرَةُ إِيمَانِكُمْ؟ وَالثَّلَاثَةِ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَهُ الْمَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ وَقَلْتُمْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ثُمَّ خَالَفْتُمْ. وَالرَّابِعَةِ: إِنَّكُمْ قَلْتُمْ: إِنَّكُمْ تَخَافُونَ مِنَ النَّارِ وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَقْدُمُونَ إِلَيْهَا بِمَعَاصِيكُمْ، فَأَيْنَ خَوْفُكُمْ؟ وَالخَامِسَةِ: إِنَّكُمْ قَلْتُمْ: إِنَّكُمْ تَرْغَبُونَ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَفْعَلُونَ مَا يَبَاعِدُكُمْ مِنْهَا، فَأَيْنَ رَغْبَتُكُمْ فِيهَا؟ وَالسَّادِسَةِ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ الْمَوْلَى وَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا. وَالسَّابِعَةِ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِعِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. فَعَادَيْتُمُوهُ بِلَاقَوْلٍ، وَوَالَيْتُمُوهُ بِلَا مَخَالَفَةٍ. وَالثَّامِنَةِ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ عِيُوبَ النَّاسِ نَصَبَ عِيُوبِكُمْ وَعِيُوبَكُمْ وَرَاءَ

ظهوركم، تلومون من أنتم أحقّ باللوم منه، فأَيّ دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد
سدّدتم أبوابه وطرقه، فاتّقوا الله، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرّاتركم، وأمروا
بالمعروف وأنهوا عن المنكر، فَيَسْتَجِيبُ اللهُ لكم دعاءكم»^١.

[في بيان كون الليل سكنا والنهار مبصراً]

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

أمر في الآية السابقة بالدعاء، ووعد بالاستجابة للداعين؛ لأنه تعالى هو الذي لا تصلح الألوهة إلا له، ولا ينبغي الدعاء والعبادة لغيره، فيقول تعالى مخبراً عن نفسه حتى يكون الداعي مسبوقاً بالمعرفة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من جهة السعي، وتهذؤوا من التصرف والتردد والاضطراب للمعاش، ومن الأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم، فتستريحون من كدّه وتعبه، ولهذه الغايات قرن الليل بمفعول له غاية لخلق الليل وجعله.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ نعمة من الله عليكم بأن جعل النهار مُبْصِراً مُضيئاً بشمسه ذات البهجة والرواء تبصرون فيه مواضع حاجاتكم، ومسعى معاشكم بالتردد والحركة والسفر إلى جُوب الأقطار. ولولا الإبصار لما حصل مكنة التصرف في الأمور على الوجه الأنفع، وجعل النهار مُبْصِراً مقروناً بالحال دون الغاية لما كان يبصر فيه المبصرون، وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز فيه مبالغة، بمعنى أن المجوّز

في هذه المجازية المبالغة في الإبصار المنسوب إلى اليوم.

وقيل: في تقديم الليل على النهار في الآية الشريفة أَنَّ الظلَّمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية، والعدم في المحدثات متقدّم على الوجود، ولهذا السبب قال في أول سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وهذه المناسبة علّة لقران الليل بالجملة الفعلية ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مفعولاً له، وقران لفظة النهار بلفظة مبصراً حالاً؛ فَإِنَّ الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية، فهو غير مقصود بالذات. واليقظة وجودية ومقصودة بالذات، وقد بيّن الشيخ عبدالقاهر في دلائل الإعجاز: «إِنَّ دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ متفضّل عليكم بما لا كِفأً له من الفضل والنعم الكثيرة التي لا توازيها نعم من غير استحقاق منكم لذلك، ولا تقدّم طلب، ففيه امتنان بالفضل العظيم الذي لا يوصف.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرونه بالطاعة له وإخلاص الألوهة والعبادة، بل يجحدون تلك النعم جهلاً منهم بالمنعم، ويكفرون بها إغفالاً عن مواقع النعم، وهذا تفرّيع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم. وتكرير ذكر الناس وعدم الاكتفاء بذكر الضمير لتخصيص كفران النعمة بطبيعة الناس، وللإشارة إلى أَنَّهُم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، فطبع الناس بما هم ناس كفران وعدم الشكر للخالق، كقوله تعالى في موارد آخر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾. ﴿وإِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ﴾. ﴿وإِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

و في الدرّ المستود حديث طويل ينبغي نقله وإن يطول بنا الكلام:

أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عيسى بن مريم عليه السلام قال: يا معشر الحواريين الصلاة جامعة، فخرج الحواريون في هيئة العبادة قد تضرّعت البطون، وغارت العيون، واصفرت الألوان، فسار بهم عيسى عليه السلام إلى فلاة من

الأرض، فقام على رأس جرنومة، فحمد الله وأثنى عليه ثم أنشأ يتلو عليهم آيات الله وحكمته، فقال: يا معشر الحوارين اسمعوا ما أقول لكم: إني لأجدني كيتفب الله المنزل الذي أنزله الله في الإنجيل أشياء معلومة فاعملوا بها. قالوا: يا ربنا الله توبسناهي؟ قال: خلق الليل ثلاث خصال، وخلق النهار لسبع خصال، فمن مضى عليه الليل والنهار؛ وهو في غير هذه الخصال خاصمه الليل والنهار يوم القيامة فخصماه. خلق الليل لتسكن فيه العروق الفاترة التي أتبعنا في نهارك، وتستغفر لذنبك الذي كسبته في النهار ثم لاتعود فيه، وتقت في قنوت الصابرين، فتلت تنام، وبثت تقوم، وبثت تنطرح إلى ربك، فهذا ما خلق له الليل. وخلق النهار؛ لتؤدي فيه الصلاة المفروضة التي عنها تسأل، وبها تحاسب، وبرّ والدك، وأن تضرب في الأرض تبتغي المعيشة معيشة يومك، وأن تعود عليه ولياً لله تعالى كما بتعهدكم الله برحمته، وأن تشيعوا فيه جنازة كما تنقلبوا مغفوراً لكم، وأن تأمروا بمعروف وتنهوا عن منكر فهو ذروة الإيمان، وقوام الدين، وأن تجاهدوا في سبيل الله تراحموا إبراهيم خليل الرحمن (عليه الصلاة والسلام) في قبته، ومن مضى عليه الليل والنهار وهو في غير هذه الخصال خاصمه الليل والنهار يوم القيامة وهو عند مليك مقتدر»^١.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَنُفْهُ وَجْهَ اللَّهِ

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾

ذَلِكُمُ الَّذِي مِنْ عَلَيْكُمْ بِمَنْتِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ النِّعَمُ هُوَ رَبُّكُمْ، وَمَا لَكُمْ، وَمَصْلَحَ أُمُورِكُمْ، خَالِقِكُمْ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْخَلْقُ لَا يَنْفَكُ عَنِ التَّدْبِيرِ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فَلَا مَعْبُودَ وَلَا إِلَهَ تَصْلَحُ لَهُ الْعِبَادَةُ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَكُونُ فِي الْوُجُودِ رَبٌّ غَيْرُهُ، لَأَلَّكُمْ وَلَا لَغَيْرِكُمْ، وَالْأَلُوْهِيَّةُ مِنْ شُؤْنِ الرِّبَوِيَّةِ، فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ. ﴿فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾؟ فَيَأْتِي أَيْنَ تَصْرَفُونَ وَتَذْهَبُونَ؟ وَأَيَّ وَجْهِ تَأْخُذُونَ؟ وَكَيْفَ تَصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟ مَعَ وَضُوحِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَالْقِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَرَبَوِيَّتِهِ.

[عاقبة الجاحدين لآيات الله تعالى]

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ كذا بكم أيها القوم وانصرفكم عن الحق إلى الباطل، ومن الرشد إلى الضلال يؤفك الذين كانوا من قبلكم من الأمم، يصرفون مقهورون للدعايات والدعاوي الباطلة فيحجدون بآيات الله، وينكرون حججه وأدلتها، ويكذبونها فلا يؤمنون، فسلكتم أنتم أيها المشركون مسلكهم، وركبتم محجتهم في الضلال.

إِنَّ اللَّهَ صَوَّرَكُمْ فِي أَحْسَنَ صُورَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ |

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ له الألوهة خالصة متفردة، أيها الناس جَعَلَ لكم لنفعكم ولمصلحتكم ﴿الْأَرْضَ﴾ التي أنتم على ظهرها مستقرّين سَكَانًا قَرَارًا، هيأها لكم بحيث تستقرون عليها، وتسكنون فوقها، والقرار بمعنى الثبات، والسكون يعني ماقَرَّ فيه والمعنى موضع قرار ومكان ثبات وسكون والمطمئن من الأرض، كما في القاموس. ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ بمعنى المبنى، أي قبة مرفوعة فوقكم على ما قيل: إِنَّ البناء، بمعنى القبة، ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب، وإطلاق ذلك لأنَّ السماء في نظر العين كقبة مضروبة على فضاء الأرض، وفيه إشارة لكرويتها، والإطلاق مجازي على سبيل التشبيه وهو تشبيه بليغ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ بناها فرفعها فوقكم بغير عمد ترونها؛ لمصالحكم وقوام دنياكم إلى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ وبناء السماء لاستحكام النظام. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ خلقكم كلاً في صورة فأحسن خلقكم، والفاء تفسيريّة، فإنّ التصوير عين الإحسان، والإحسان عين التصوير، وتصوير الله لا يكون إلّا حسناً، بل أحسن ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ صَوَّرَكُمْ أَحْسَنَ تَصْوِيرٍ مَقْبُولاً مَرآةَ لَجَمَالِ الْجَمِيلِ، وَكُلَّ جَمِيلٍ مِنْ جَمَالِ اللَّهِ، خَلَقَكُمْ مُنْتَصِبِ الْقَامَةِ، بَادِئُ الْبَشَرَةِ، مُتَنَاسِي الْأَعْضَاءَ وَالتَّخْطِيطَاتِ، مُتَهَيِّئٌ لِمَزَاوِلَةِ الصَّنَاعَاتِ، وَاكْتِسَابِ الْكِمَالَاتِ، مُجَهِّزِينَ مِنْ دَقَائِقِ التَّجْهِيزِ فِي صَوَرَتِهِمْ بِمَا يَقْوُونَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْعَجِيبَةِ عَلَى مَا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَّةِ.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وَرَزَقَكُمْ مِمَّا تَسْتَطِيعُ نَفُوسُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَلَالِ الرِّزْقِ، وَطَيِّبَاتِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ مِنْ أَقْسَامِ الثَّمَارِ، وَفُنُونِ النَّبَاتِ، وَأَنْوَاعِ اللَّحُومِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ لَهُ طَيِّبَاتُ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، مِثْلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِابْنِ آدَمَ؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْوَاعَ الطَّيِّبَاتِ وَاللَّذَاتِ مِنَ الثَّمَارِ، وَفُنُونِ النَّبَاتِ وَاللَّحُومِ وَالدَّسُومِ بِمَا لَا يَحْصِي كَثْرَةً، فَهُوَ يَلْتَذُّ مِنْ مَزَايَا الْحَيَاةِ بِمَا لَا يَتَيَسَّرُ لغيرِهِ أَبَدًا.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيُّ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ هَذِهِ النِّعَمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْأُلُوهَةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَصْلُحُ الرُّبُوبِيَّةُ إِلَّا لَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَرْبُوبٌ مُفْتَقِرٌ بِالذَّاتِ، مُعَرِّضٌ لِلزُّوَالِ، لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ صِفَةً خَاصَّةً بِاللَّهِ تَعَالَى، أَيُّ تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى بِذَاتِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْعِبَادَةِ؛ إِذْ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مَالِكُ الْخَلَائِقِ وَمُرَبِّيهُمْ، وَالْكُلُّ تَحْتَ مَلَكُوتِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ، وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِ بَحِيثٌ لَوْ انْقَطَعَ فَيُضْهِ جَلَّ شَأْنُهُ عَنْهُ أَنَا لَعَدَمُ بِالْكَلِّيَّةِ وَهُوَ الدَّائِمُ الثَّابِتُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ.

و فِي الْمِيزَانِ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ فَرَعَ رُبُوبِيَّتَهُ لِلْعَالَمِينَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِلْإِنْسَانِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ وَاحِدَةٌ، وَتَدْبِيرُهُ لِأَمْرِ الْإِنْسَانِ عَيْنُ تَدْبِيرِهِ لِأَمْرِ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً؛ فَإِنَّ النِّظَامَ الْجَارِي نِظَامَ وَاحِدٍ رُوعِي فِي انْطِبَاقِهِ عَلَى كُلِّ انْطِبَاقِهِ عَلَى الْكُلِّ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْشَأٌ لِلْخَيْرِ الْكَثِيرِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

[طلب خلوص الدعاء لله تعالى]

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾

الإتيان بضمير الغائب للإشارة إلى أنه تعالى غائب عن الحواس الظاهرة من جهة عظمته وكبريائه، وغائب عن الحواس الباطنة، لعدم دركه بحقيقته، وهو جلّ وعلا فوق إدراك المدركين.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي تفرّد بالحياة الذاتية لا يدانيه موجود في ذاته وصفاته وأفعاله جلّ شأنه. وهو الحيّ المتفرّد وحده، حيّ بذاته حياة لا يداخلها موت، ولا يزيلها فناء، وغيره كائن ما كان حيّ بإحيائه تعالى، فهو المستحقّ بذاته للعبادة، فإنّه الحيّ بذاته، ومُعطي الحياة لكلّ حيّ غيره بعنايته ولطفه، فلذا فرّغ قوله: هو الحيّ بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المعبود بحقّ تجوز عبادته، وتصلح الألوهة له، ولا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته. فالله الحيّ المتفرّد المعطي لكلّ حياة هو المستحقّ بالاستحقاق الذاتي للدعاء، وبالتوحيد العملي، وإخلاص الدين له وحده، فقال سبحانه: فَادْعُوهُ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ منصوب على الحالية ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ مخلصين في دعائه، وعبادته، وطاعة خالصة من الشرك الخفيّ والجلّي، مفردين له

الآلوهة، لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه من وثنٍ، وصنمٍ، ولا تجعلوا له ندّاً، ولا عدلاً.

﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ﴾ الشكر لله الذي هو مالك العالمين ومربيها قال الفراء: «و هو خبر، وفيه إضمار، كأنه قال: أدعوه واحمدوه على هذه النعم، وقولوا: الحمد لله رب العالمين».

و في المجمع: «روى مجاهد عن ابن عباس: من قال: لا إله إلا الله فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين يريد قول الله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الحمد لله رب العالمين».

و في تفسير البرهان:

علي بن إبراهيم، قال: حدّثني أبي عن القاسم بن محمد، عن سليمان بن داود رفعه، قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين عليه السلام فسأله عن مسائل ثم عاد ليسأل عن مثلها، فقال علي بن الحسين: «مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما عملتم بما علمتم؛ فإنّ العالم إذا لم يعمل به لم يزد بعلمه من الله إلا بعداً». ثم قال: «عليك بالقرآن، فإنّ الله خلق الجنّة بيده لبنّة من ذهب ولبنّة من فضّة، وجعل ملاطّها المسك، وترابها الزعفران، وحصاها اللؤلؤ، وجعل درجاتها على قدر آيات القرآن. فمن قرأ القرآن قال له: اقرأ وارق، ومن دخل منهم الجنّة لم يكن أحد في الجنّة أعلى درجة منه ما خلا النبيين والصّديقين». وقال له الرجل: فما الزهد؟ قال: «الزهد عشرة أجزاء، فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الرضى، ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فقال الرجل: لا إله إلا الله، وقال علي بن الحسين عليه السلام: «و أنا أقول: لا إله إلا الله، فإذا قال أحدكم: لا إله إلا الله، فليقل: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ﴾ فإنّ الله يقول: ﴿هُوَ أَحْيِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ﴾».

[قال] الشيخ في مجالسه: قال: أخبرنا جماعة عن أبي المفضل الليث بن محمد بن الليث العنبري إملاءً من أصل كتابه، قال: حدّثنا أحمد بن عبد الصمد بن مزاحم الهروي سنة إحدى وستين ومائتين قال: حدّثنا خالي أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي، قال: كنت مع الرضا عليه السلام لما دخل نيسابور وهو راكب بغلةً شهباء وقد خرج علماء نيسابور في استقباله، فلما صار إلى المربعة تعلّقوا بلجام بغلته وقالوا: يا ابن رسول الله، حدّثنا بحق آبائك الطاهرين، حدّثنا عن آبائك (صلوات الله عليهم أجمعين)، فأخرج رأسه من الهودج وعليه مطرف خرّ، وقال: حدّثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن الحسين، عن أبيه الحسين سيّد شباب أهل الجنة، عن أمير المؤمنين، عن رسول الله ﷺ قال: أخبرني روح الأمين عن الله (عزّ وجلّ، تقدّست أسماؤه، وجلّ وجهه) قال: إنّي أنا الله بشهادة أن لا إله إلا أنا وحدي. عبادي فاعبدوني، وليعلم من لقيني عنكم بشهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً بها أنّه قد دخل الجنة حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي». قالوا: يا ابن رسول الله، وما إخلاص الشهادة لله؟ قال: «طاعة الله ورسوله، وولاية أهل بيته عليهم السلام».

محمد بن يعقوب عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد وعدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، جميعاً عن الوشاء. عن أحمد بن عائد، عن أبي الحسن السّوّان، عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبان إذا قدمت الكوفة فأزرو هذا الحديث: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وجبت له الجنة»، قال: قلت له: إنّه يأتيني من كلّ صنف فأروني لهم هذا الحديث؟ قال: «نعم يا أبان إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين، فتسلّب لأله إلا الله منهم إلا من كان على هذا الأمر»^١.

الدعوة لصرف المشركين عن عبادة الأوثان والأصنام

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أمر من الله جلّ شأنه لرسوله الكريم؛ ليصرف المشركين عن دعوتهم له لعبادة الأوثان والأصنام بِاللَّيْنِ قولٍ وأطفه، قُلْ يا رسول الله للمشركين من قومك: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾ نهاني الله أَيُّهَا الْقَوْمُ بطهارة الطينة، وفطرة العقل، والآيات البَيِّنَاتِ المنزلة ﴿أَنْ أُعْبِدَ﴾ وَأَوْجِهَ العبادة إِلَى ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من هذه الأوثان والأصنام التي تجعلونها آلِهَةً، وصريح العقل يشهد بأنَّ العبادة لاتليق إِلَّا به، وجعلُ الأحجاز المنحوتة والخشب المصوّرة شركاء له في المَعْبُودِيَّةِ مستنكرة في بديهة العقل.

﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ بعد تفضّل الله تعالى عليّ بهذه الآيات البَيِّنَاتِ آيات كتاب الله المنزل إِلَيَّ المشتملة على الحجج والبراهين المؤيِّدة من أدلّة العقل من عند ربِّي من ساحة ربِّي وجهته، إشارة إلى أَنَّ دلائل التوحيد وشواهد أنوار الحقيقة لاتطّلع إِلَّا من مطلع الهداية الربوبية، وللملتمسين أن يتوجّهوا إلى ذلك الجانب بالإعراض عن السوى، وترك أصنام البدع والهوى.

وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ فَأَسْتَسَلِمُ، وَأَذِلَّ وَأَخْضَعُ
لَأَمْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَأَوْجَدَكُمْ، وَيَمْلِكُ تَدْبِيرَ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ. وَفِي الْآيَةِ
الشريفة إتياس للمشركين من موافقته ﷺ لهم في عبادة آلهتهم.

[في بيان مراحل خلقه الإنسان]

﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً
ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ
وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

ثم عاد إلى ذكر الأدلة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ معاصر الخلائق ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ خلق آباءكم من تراب، وأنتم نسله، وإليه ترجعون، وإليه تنتمون، فالمراد من خلقهم من ترابٍ خلقهم من أبيهم آدم، ويمكن أن يكون المراد من الخلق من ترابٍ تكوين النطفة الإنسانية من البسائط الممهدة الأرضية، ثم خلقكم من ﴿نُطْفَةٍ﴾ أي ثم أنشأ من ذلك الأصل الذي خلقه من تراب النطفة الحقيرة ثم قلبها إلى علقَةٍ وهي القطعة من الدم ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ خلقكم بعد أن كنتم نطفاً ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم وممكن ما منكم ﴿طِفْلاً﴾ أي أطفالاً واحداً واحداً، ولذا ذكره بالتوحيد، كما قال: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ لِأَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَعْمَالاً قَدْ خَسِرَ بِهَا.

قال يونس: «العرب تجعل «الطفل» الواحد والجماعة». قال الله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾^١

و في المصباح: قال ابن الأنباري: «يكون الطفل بلفظ واحدٍ للمذكر والمؤنث والجمع، وتجوز فيه المطابقة أيضاً». وقيل: «إنَّ الطفل واحد لاجمع كما وهم».

﴿ثُمَّ لِنَبْلُغْهُنَّ أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثُمَّ يُقَيِّبُكُمْ لتبلغوا، فاللام لل غاية. والأشدُّ جمع شدة كأنعم ونعمة. والأشدُّ من العمر زمان اشتداد القوى، وحال استكمال القوة، فالمعنى: لتتكمال قواكم، ويتناهى شبابكم، وتتمام خلقكم ﴿ثُمَّ لِنَكُونُ شُيُوخًا﴾ طاغين في السن. وتشير الآية الكريمة إلى أنَّ الإنسان على ثلاث مراتب: الطفوليَّة وهي مرتبة التزايد والنشؤ والنماء، والشبوبة والأشدِّيَّة مرتبة البلوغ إلى اشتداد القوى واستكمال القوة بلاضعف وهوان، ومرتبة الشيخوخة مرتبة التراجع وظهور آثار الضعف والنقصان.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أن يبلغ الشيخوخة والهرم، ومن قبل أن يبلغ أشده. ﴿وَلِنَبْلُغْهُنَّ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي يبلغ كل واحد منكم ما سمي ووقت له من الأجل الذي يموت عنده، وهو الأمد الذي لاسبيل للتغيير إليه أصلاً. فالأجل المسمي هو الميقات المعين للحياة، والأجل المحدود الذي لا يتجاوز عنه، ولا يتقدّم عليه، وهو غاية عامّة لجميع الناس كيفما عمرّوا. قال الله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾^١.

و لذلك لم تعطف الجملة بشم حتّى تتميز من الغائتين المذكورتين سابقاً.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك، وتدبروا آياته فتدركون الحقّ بالتعقل المغرور فيكم. فتلتفتوا إلى ما أنعم الله عليكم من أنواع النعم، وعجائب أمر الحياة بمراحلها المختلفة والأطوار العجيبة من فنون الحكم والعبر حتى تلتفتوا إلى غاية خلقكم بحسب حياتكم المعنويّة، كما أنَّ بلوغ الأجل المسمي المشار إليه كان غاية حياتكم الدنيا الصوريّة.

و في كتر الدقائق ونور الثقلين: في كتاب الخصال^١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يؤتى بالشيخ يوم القيامة، فيدفع إليه كتابه، ظاهره ممّا يلي الناس، فلا يرى إلّا مساوى، فيطول ذلك عليه، فيقول: يا ربّ، أتأمرنى إلى النار؟ فيقول الجبار جلّ جلاله: يا شيخ، إني أستحيي أن أعذّبك وقد كنتَ تصلّي لي في دار الدنيا، اذهبوا بعبدى إلى الجنّة»^٢.

١. الخصال، ص ٥٤٦، ح ٢٦.

٢. كتر الدقائق، ج ١١، ص ٤١٣.

[في بيان أنّ إرادة الله تعالى فعله]

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

الله جلّ جلاله هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته، أو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته، أو الذي يفعل الإحياء والإماتة. وتقديم الضمير للحصر، فلا محيي ولا مميت إلا الله ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ وإذا قضى وأراد كون امرٍ من الأمور التي يريد تكوينها. القضاء بمعنى إرادة وهي بمعنى الإيجاد والقضاء والإرادة من الله شيء واحد ومعنى إرادته أوقفه موقف تعلق الإرادة فهو بمعنى أوجده. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كان تامّة، أي يريد فيوجد من غير أن يتعذّر عليه ولا يمتنع. والله تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء ممّا أراحه إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد الشيء له أو يعينه في إيجاداه أو يدفع عنه مانعاً بمنعه والمراد من كلمة ﴿كُنْ﴾ هو نفس الإيجاد والوجود، فكلمة «كن» وهي نفس الإيجاد وهي نفس وجود الشيء الذي أوجده بغير معاناة ولا كلفة مؤونة. والفاء في ﴿فَيَكُونُ﴾ للتفرّع الرتبي. وليس المراد أنّ هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمّى إيجاداً، ثم يتصل الأمر بالشيء فيصير به موجوداً، فنفس الإيجاد وهي كلمة ﴿كُنْ﴾ هي وجود الشيء الذي أوجده لكن بما أنّه منتسب إليه

قائم به وأما من حيث انتسابه إلى نفس الشيء بما موجود ومخلوق، فظهر عدم إمكان المراد من قوله تعالى كلمة ﴿كُنْ﴾ كلمة لفظية يتلفظ بها. وإلا احتاج نفس التلفظ وجوده إلى لفظ آخر، وهلم جرأً فيستلسل، ولا أن هناك مخاطباً ذا سمع يسمع هذا الخطاب اللفظي حتى لا يكون اللفظ والخطاب متوجهاً إلى المعدوم، والخطاب بالمعدوم قبيح ومحال، والله تعالى لا يفعل القبيح والمحال فلا يمكن أن يكون المراد الخطاب اللفظي ولا يمكننا فرض كون سامع مخاطب حتى يسمع الخطاب فيوجد به لادائه إلى الخلف المحال وكون الشيء موجوداً قبل وجوده. فالمراد من كلمة ﴿كُنْ﴾ كما ذكرنا هو نفس إرادة الشيء التي هي نفس إيجاد الشيء ووجوده بلا تأخير ومهلة. فالكلام تمثيل لإفاداته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وراء ذاته المتعالية، ومن غير تخلف ومهل.

وفي كتاب التوحيد لابن بابويه عليه السلام عن موسى بن جعفر عليه السلام «فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بلا لفظ ولا نطق ولا همّة ولا تفكير»^١.

في مذمة الذين يجادلون في آيات الله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُضَرِّفُونَ﴾

خطاب للرسول الكريم وتعجب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الركيكة،
وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الله، أنظر وأعجب من هؤلاء المكابرين في آياتنا الواضحة
الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدل فيها.

﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ يخاصمونك في حجج الله وآياته، ويعاندون في، دفعها وإبطالها،
والتعرض لحال المجادلين هاهنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحق
والهدى من غير دليل وبرهان وذلك لما تقدّم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانًا أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ من حيث إن الداعي
لهم إلى ذلك الكبر، وأنهم لا يبلغون ما يريدون، فلا تكرر.

﴿أَنَّهُمْ يُضَرِّفُونَ﴾ كيف يصرفون عنها؟ أي وجه يصرفون؟ ومن أين ينقلبون عن
الحق والصراط المستقيم إلى الضلال، ويعدلون عن الرشد إلى العمى؟ فهذه المجادلة
والصرف منهم للعناد والتخاصم في قبال الحق وإلا لو كانوا يخاصمون في آيات الله
بالنظر في صحتها والتفكر فيها لما ذمهم الله تعالى.

في تهديد الذين كذبوا برسُل الله تعالى

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ نعت «للذين» الأولى. ﴿كَذَّبُوا﴾ بالكتاب وهو هذا القرآن؛ لأنَّ سياق الآيات السابقة القريبة والتالية كون المراد من المجادلين هم المجادلون مع النبي ﷺ، فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن.

﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ وكذبوا أيضاً مع تكذيبهم بكتاب الله بما أرسلنا به رسلنا من الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإخلاص العبادة له، والبراءة ممَّا يعدّدونه من الآلهة والأنداد، والإقرار بالبعث بعد الممات للثواب والعقاب. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد من الله للمشركين به، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فسوف يعلم هؤلاء الذين يجالدون في آيات الله، المكذبون بالكتاب حقيقة ما تخبرهم به، وصحّة ما هم به اليوم من تكذيبهم هذا الكتاب.

[بيان حال المكذّبون لرسّل الله تعالى يوم القيامة]

﴿٧١﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾

إذا الأغلال متعلّق بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعلَمُونَ﴾ والمعنى على الاستقبال، والتعبير بلفظ «إذ» الدالّ على الماضيّ للدلالة على تحقّقه حتّى كأنّه ماضٍ حقيقة، فهو بمعنى «إذا» الخاصّ بالمستقبل، فلا تنافر بين «سوف» الدالّة على الاستقبال وبين «إذ» الظرفيّة الخاصّة بالماضي، والمعنى: أي يعلمون حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنّم يسحبون. يجرّ ويسحب هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا وهم زبانيّة العذاب يوم القيامة في الحميم وهو المنتهي حرّه والبالغ غايته. ومكان ﴿يُسْحَبُونَ﴾ النصب على الحالية. والأغلال جمع غلّ وهو طوق يدخل في العنق للذلّ والألم والأذى. وأصله الدخول من قولهم: انغلّ في الشيء إذا دخل فيه. والغلول: الخيانة التي تصير كالغلّ في عنق صاحبها، والأعناق جمع عنق وهو مركب الرأس، العضو الفاصل بين البدن وبينه. والسلاسل جمع سلسلة وهي حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة، ويقال: تسلسلت المعاني إذا استمرت شيئاً قبل شيء، كالسلسلة الممدودة.

المكذبون يسجرون في النار

﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾^(٧٢)

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يقذفون في النار، ويلقون فيها، أو تسجر بهم جهنم، أي توقد بهم جهنم؛ فإنَّ السجر إلقاء الحطب في معظم النار، كالتنور الذي يسجر بالوقود، وسجرت التنور: أوقدته. وسجّرت: مَلَأْتَهُ بالوقود، ومنه البحر المسجور، أي المملوء. ويقال للصديق: السجير كأنه سُجِرَ بالحبِّ. فهؤلاء الكفار لجهنم كالسجار للتنور ووقوده، كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^١

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^٢

١. البقرة: ٢٤.

٢. الأنبياء: ٩٨.

[مذمة الشرك بالله تعالى]

﴿٧٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ

ثم قيل لهم: - إنما يقال لهم توبيخاً وتقريعاً على ما كان من المشركين في الدنيا من الكفر بالله، وطاعة الشيطان لإيلاف قلوبهم كإيلاف أبدانهم بالتعذيب - ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من آلهتكم وأوثانكم حتى يغيثوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء، ويخلصوكم وينصروكم من عذاب الله مع ما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم.

بيان أقوال الكافرين يوم القيامة وكيفيّة استدلالهم

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ
اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾

قالوا: ضلُّوا عَنَّا فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عن
عيوننا، وهلكوا، ولانراهم من قولهم: ضلَّ الدار وضلَّت الدابة إذا لم يعرف مكانهما،
و تركونا في هذا البلاء، ولانقدر عليهم ثم يستدركون ويضربون عن هذا الجواب
ويقولون: بل ما ضلُّوا عَنَّا، ولكنَّا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئاً، إى لم نكن
نعبد شيئاً يستحقّ العبادة، ولما ينتفع بعبادته وكانوا معنا. فتبيّن اليوم أنهم لم يكونوا
شيئاً، وما كنّا نعبد بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أنّ فلاناً شيء فإذا هو ليس
بشيء، إذا جرّبه لم تجد عنده خيراً، وهذا الجواب منهم لما يظهر لهم أنّ الآلهة
الذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلّا أسماء لامسميات لها، ومفاهيم لا يطابقها
شيء، ولم تكن عبادتهم لها إلّا سدى، ولذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئاً.

﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: كما أضلّ هؤلاء الذين ضلّ وغاب عنهم
في جهنّم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله من الآلهة والأوثان آلهتهم وأوثانهم
حتى لو طلبوا الآلهة، أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا، كذلك يضلّ الله أهل الكفر به

عنه، و عن رحمته، و عبادته، فلايرحمهم فينجيهم من النار، ولا يغنيهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء.

و في تفسير كثر الدقائق: وفي الكافي: عده من أصحابنا، عن أحمد بن محمد وسهل بن زياد وعلي بن إبراهيم، عن أبيه، جميعاً عن ابن محبوب، عن علي بن رثاب (عن ضريس الكناسي) قالوا: قال أبو جعفر عليه السلام: «إِنَّ لِلَّهِ نَاراً فِي الْمَشْرِقِ..... إِلَى أَنْ قَالَ: - فَأَمَّا النَّصَابُ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ، فَإِنَّهُمْ يُخَدُّ لَهُمْ خَدٌّ إِلَى النَّارِ الَّتِي خَلَقَهَا (اللَّهُ) فِي الْمَشْرِقِ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا اللَّهَبُ وَالشَّرُّ وَالِدُخَانُ وَفُورَةُ الْحَمِيمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ مَصِيرُهُمْ إِلَى الْحَمِيمِ، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيُّ أَيْنٍ إِمَامُكُمْ الَّذِي اتَّخَذْتُمُوهُ دُونَ الْإِمَامِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً؟» والحديث طويل أخذت منه موضع الحاجة، وتمام الحديث في البرهان، فراجع.

و في بصائر الدرجات: علي بن العباس بن عامر، عن أبان، عن بشير النبال، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «كنت خلف أبي وهو على بغلته، فنفرت بغلته، فإذا شيخ في عنقه سلسلة ورجل يتبعه. فقال: يا علي بن الحسين، اسقني اسقني. فقال الرجل: لاتسقه لاسقاه الله، وكان الشيخ معاوية».

الحجّال عن الحسن بن الحسين، عن ابن سنان، عن عبد الملك القمي، عن إدريس، عن أخيه، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «بيننا أنا وأبي متوجهان إلى مكة. وأبي قد تقدمني في موضع يقال له: ضجنان؛ إذا جاء رجل في عنقه سلسلة يجزها، فأقبل عليّ، فقال لي: اسقني، اسقني، قال: فصاح بي أبي: لاتسقه، لاسقاه الله، ورجل يتبعه حتى جذب سلسلته وطرحه في أسفل درك من النار».

أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد، عن إبراهيم بن أبي البلاد، عن علي بن المغيرة قال: نزل أبو جعفر عليه السلام بوادي ضجنان، فقال ثلاث مرّات: «لاغفر الله لك» ثم

قال لأصحابه: «أتدرون لِمَ قلتُ ما قلتُ؟» فقالوا: لِمَ قلتُ، جعلنا الله فداك؟ قال: «مرّ مغاوية يجزّ سلسلة قد أدلى لسانه يسألني أن أستغفره، وأنّه يقال: إنّ هذا وادٍ من أودية جهنّم».

و في تفسير علي بن إبراهيم: وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ - إلى قوله - ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾: «فقد سمّاهم الله: كافرين مشركين بأن كذبوا بالكتاب، وقد أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك كافر»^١.

[في مذمة الكافرين ببيان ماضى عليهم في الدنيا]

﴿ذُلِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾^(٧٥)

في كنز الدقائق:

«ذُلِّكُمْ» هذا الذي فعلنا اليوم بكم أيها المشركون المجادلون من تعذيبنا تعذيبناكم العذاب الذي أنتم فيه بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق بفرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا بغير ما أذن لكم به من الباطل والمعاصي. «الباء» في «بما» للسببية أو المقابلة. وقال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية.

و قال: المرح: شدة الفرح والتوسع فيه.^١ انتهى.

والفرح في الآية مقيد بكونه بغير الحق، والمرح مطلق؛ لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه، وقد يكون بالباطل فيذم عليه، والمرح هو البطر والخيلاء، فلا يكون إلا باطلاً، وبين الفرح والمرح في الآية الشريفة تجنيس حسن. «بما كنتم تَمْرَحُونَ» وبمرحكم في الدنيا من الإشرار والبطر والفخر والخيلاء، والعمل في الأرض

بالخطيئة، والمعنى: بما كنتم تعملون بالخطايا، وتبطرون وتأشرون. والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ؛ لأنّ ذمّ المرء في وجهه تشهير وتفضيح، كما قيل: النصح بين المأّ تقريع وتفضيح.

و في البرهان و كتر الدقائق: في تفسير علي بن إبراهيم: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الفرح والمرح والخيلاء كلّ ذلك في الشرك والعمل في الأرض بالمعصية».

و في كتاب الخصال: عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «و شعب الطمع أربع: الفرح، والمرح، والحاجة، والتكبر، والفرح مكروه عند الله تعالى، والمرح خيلاء»^١. والحديث طويل أخذت منه موضع الحاجة.

[سوء حال المشركين والمستكبرين يوم القيامة]

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

ادخلوا أبواب جهنم وهي دركاتها لكل باب منهم جزء مقسوم.
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مؤبدين فيها لا انقطاع؛ لكونكم فيها، ولانهاية لعقابكم ونصب
«خالدين» على الحالية، والعامل فيه مقدّر، كأقيموا أو البثوا خالدين، ولا يمكن أن
يكون العامل «أدخلوا»: لعدم الخلود حال الدخول إلا أن يكون «أدخلوا» مجازاً
بمعنى «أقيموا».

﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنم، فالمخصوص بالذم محذوف بقرينة السابقة.
فبئس مقام المتكبرين في الدنيا، الذين تكبروا عن عبادة الله، وتجبروا عن الانقياد له،
كما أشار إليه في الآية المتقدمة: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، وحيث صدر الآية
الشريفة بـ«أدخلوا» كان مقتضى النظم الجليل أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين؛
ليتجاوب ويتلاءم الصدر والذيل، وعبر «بالمثوى» لسببية الدخول المقيّد بالخلود
للنواء، فصحّ التجاوب والتلاؤم معنى بين الصدر والذيل.

أمر الله تعالى رسوله بالصبر في تحمّل أذى المشركين

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر، وتحمل أذى المشركين، فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا رسول الله على مجادلة هؤلاء المشركين، ومكابرتهم في آيات الله التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، وأذاهم؛ فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر، والعلو عليهم، وإحلال العقاب بهم. ومعنى ﴿فَاصْبِرْ﴾ أثبت الحق وتحمل عليه. فسماه صبراً للمشقة التي تلحق فيه كما تلحق بتجرع المر.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب والجنة، وتوعد الكفار من العقاب حق لا شك فيه، بل هو كائن لا محالة إما في الدنيا، وإما في الآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ «فإما نريتك» يا رسول الله في هذه النشأة الدنيوية في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب في الدنيا بالنقمة والقتل والأسر والقهر، وأصل ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإن نريتك و«ما» مزيدة لتأكيد الشرطية، ولذلك لحقت النون الفعل، ولم تلحق مع إن وحدها، ولا يقال: إن نريتك. وإنما قال: ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ لأن المعجل من عذابهم في الدنيا هو

بعض ما يستحقونه، ولا يمكن تعجيل جميع ما يستحقونه من العذاب في الدنيا؛ لعدم تحمل عالم الدنيا لجميع عذاب الآخرة.

﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وإن لم نفعل ذلك بهم وقبضناك إلينا قبل أن يحلّ ذلك بهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فإلينا مصيرك ومصيرهم، فنفعل بهم ما وعدناهم العقاب وأليم العذاب. ونحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقّ بتخليدنا إيّاهم في النار، وإكرامناك إياك في جوارنا في جنّات النعيم.

و ظهور جملة ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ في كونها جواباً لكلتا الشرطيتين ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ بمعنى أن نعذبهم في حياتك وإن لم نعذبهم فإنّا نعذبهم في الآخرة أشدّ العذاب، ويدلّ على شدة العذاب.

الاقتصار بذكر مجرّد الرجوع في هذا المعرض. ويمكن كون الجملة جواباً له ﴿تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجواب له ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف مثل فذاك.

وفي تفسير كنز الدقائق:

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب، عن عليّ بن رئاب، عن ضريس الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: - جعلت فداك - ما حال الموحّدين المقرّين بنبوّة محمد عليه السلام من المسلمين المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام، ولا يعرفون ولا يتكلم؟ فقال: «أما هؤلاء، فإنّهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان له عمل صالح ولم تظهر منه عداوة فإنّه يُخَدُّ له خَدٌّ إلى الجَنَّةِ التي خلقها الله بالمغرب، فتدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة حتى يلقي الله فيحاسبه بحسناته وسيئاته، فإنّما إلى الجَنَّةِ وإمّا إلى النار، فهؤلاء الموقوفون لأمر الله - قال: - وكذلك يفعل بالمتضعفين، والبله، والأطفال، وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم، وأمّا النصاب من أهل القبلة، فإنّهم يُخَدُّ لهم خَدٌّ إلى النار التي خلقها الله في المشرق، فيدخل عليهم اللهب والشرر والدخان وفورة الحميم إلى يوم القيامة، ثمّ بعد ذلك مصيرهم إلى الجحيم.

﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ثم قيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ،
 أي إمامكم الذي اتخذتموه دون الإمام الذي جعله الله لكم وللناس إماماً؟ ثم قال
 لنبينه ﷺ: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يعني
 من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.^١

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ نَبِيَّهِ قِصَصَ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ

﴿٧٨﴾ «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ»

و لقد أرسلنا يا رسول الله رسلاً من قبلك إلى أممهم ﴿مِنْهُمْ﴾ بعضهم من قصصنا عليك من أولئك الذين أرسلنا إلى أممهم انبأناك بأخبارهم، وما لقوه من أقوامهم. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخبارهم.

و روي عن علي عليه السلام أنه قال: «بعث الله نبياً أسود لم يقص علينا قصته». واختلفت الأخبار في عدد الأنبياء، فروي في بعضها: «إن عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». وفي بعضها «ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم». والمذكور قصصهم أشخاص معدودة، والمشهور هو الأول.

وفي البحار عن الخصال والأمالى للصدوق إلى دارم، عن الرضا عن آبائه عليه السلام، قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: خلق الله عز وجل مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي أنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي فعلي

أكرمهم على الله وأفضلهم».^١

و في البحار عن أمالي الشيخ: ابن بشران [ظاهراً]، عن عثمان بن أحمد بن الدقاق. عن الحسن بن سلام السواق عن زكريّا بن عدي، عن مسلم بن خالد، عن زياد بن سعد، عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثتُ على إثر ثمانية آلاف نبيٍّ منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل».^٢

و في البحار عن معاني الأخبار و الخصال: عليّ بن عبد الله الأسواري عن أحمد بن محمد بن قيس عن عمرو بن حفص، عن عبد الله بن محمد بن أسد، عن الحسين إبراهيم (كذا)، عن يحيى بن سعيد البصري، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عتبة الليثي، عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: «مائة ألف و أربعة وعشرون ألف نبيٍّ». قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاث مائة و ثلاثة عشر جمّاً غفيراً». قلت: من كان أول الأنبياء؟ قال: «آدم»، قلت: وكان من الأنبياء مرسلًا، قال: «نعم، خلقه الله بيده، و نفخ فيه من روحه»، ثم قال: «يا أباذر أربعة من الأنبياء سريانبيون: آدم، و شيث، و أخنوخ و هو إدريس و هو أول من خطّ بالقلم، و نوح و أربعة من العرب: هود، و صالح، و شعيب، و نبيك محمد ﷺ و أول نبيٍّ من بني إسرائيل موسى و آخرهم عيسى، و ستمائة نبيٍّ»، قلت: يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب؟ قال: «مائة كتاب و أربعة كتب. أنزل الله تعالى على شيث (عليه السلام) خمسين صحيفةً، و على إدريس ثلاثين صحيفةً، و على إبراهيم عشرين صحيفةً، و أنزل التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان».^٣

١. بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٠، ح ٢١.

٢. المصدر، ص ٣١، ح ٢٢.

٣. المصدر، ص ٣٢، ح ٢٤.

و في البحار عن بصائر الدرجات: أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن عبد الرحمن بن بكير الهجري، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إِنَّ أَوَّلَ وَصِي كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هَبَّةُ اللَّهِ بْنِ آدَمَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ مَضَى إِلَّا وَلَهُ وَصِيٌّ، كَانَ عَدَدُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ مِائَةً أَلْفٍ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ، خَمْسَةٌ مِنْهُمْ أَوَّلُ الْعَزْمِ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ هَبَّةَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ. وَرَثَ عِلْمٍ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ»^١.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ بِمُعْجَزَةٍ أَوْ آيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره سنة عقلية الهية. ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جعلنا لرسول ممن أرسلناه من قبلك الذين قصصناهم عليك والذين لم نقصصهم عليك إلى أمها أن يأتي بآية فاصلة بينه وبينهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بذلك فيأتيهم بها. يقول جل ثناؤه لنبيه: فلذلك لم يجعل لك أن تأتي قومك بما يسألونك من الآيات دون إذننا لك يذلك، كما لم نجعل لمن قبلك من رسلنا إلا أن نأذن له به؛ إذ الإيتان بالمعجزات إنما يكون بحسب المصالح التي لا يعلمها إلا الله، ولا اختيار لهم في ذلك.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة يوم القيامة. وعد شديد عقيب اقتراح الكافرين الآيات من النبي ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالعدل. وهو أن يتنجي رسله والذين ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾.

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ قال في القاموس: الباطل ضد الحق وأبطل جاء بالباطل، فالمبطل صاحب الباطل والتمسك به، كما أن المحق صاحب الحق والعامل به، يقول: وهلك هنالك الذين أبطلوا في قيلهم الكذب، وافترائهم على الله وأدعائهم له شريكاً. ومجادلتهم ومكابرتهم مع الأنبياء والرسل وآياتهم، فهم

يخسرون ديناهم بالهلاك وآخرتهم بالعذاب الدائم، فهم يحرمون الجنة، ويحصلون في النار بدلاً منها، وذلك هو الخسران المبين.

و في تفسيري البرهان وكنز الدقائق: في أمالي الصدوق عليه السلام بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام. قال: «كان بالمدينة رجل بطال يُضحك الناس، فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أضحكه يعني علي بن الحسين عليه السلام، قال: فمر علي عليه السلام وخلفه موليّان له، فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبتة ثم مضى، فلم يلتفت إليه علي عليه السلام، فأتبعوه وأخذوا الرداء منه، فجاءوا به، فطرحوه عليه، فقال لهم: «من هذا؟» قالوا: هذا رجل بطال يُضحك أهل المدينة، فقال: «قولوا له: إنَّ لله يوماً يخسر فيه المبطلون».

ثم امتنَّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى، فقال:

من آثار قدرة الله خلق بعض الأنعام للركوب و...

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ يحقّ العبوديّة المحضة له، ولا تصلح الألوهة إلّا للذي جعل لكم الأنعام الصالحة للركوب عليها من الإبل والبقر والغنم والخيول وغير ذلك من البهائم التي يقتنيها الخلق لمركب أو لمطعم، واللام ﴿لَكُمْ﴾ للتعليل للاختصاص، نظير نظائر الآية الشريفة، أي خلقها لأجلكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ كالخيول والحمير، واللام للغرض ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالإبل والبقر والغنم.

فانظر: إنّ الله تعالى خلق لانتفاع الخلائق هذه الأنعام بركوبها، والأكل منها، وهو تعالى لا يريد القبيح ولا المباح من خلقه وعنايته ولطفه، فلا بدّ أن يكون أراد انتفاعهم بها على وجه الطاعة والقربة إليه. وكذلك في عصرنا الحاضر التي تبدّلت المراكب بمراكب مخترعة مصنوعة بأيدي البشر من السفائن البريّة والبحريّة والفضائيّة وكلّ ذلك من منن الله تعالى وآياته لمصالح عباده في الحقول المعيشيّة الماديّة.

[بيان أنواع استفادات الناس عن الأنعام]

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
أَفْئُكٍ تَحْمَلُون﴾^{٨٠}

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ وذلك أن جعل لكم من جلودها ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَلَعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءً وَمَتَاعاً
إِلَى حِينٍ^١ ومنافع جمع منفعة بمعنى النفع، والمراد مواضع المنفعة؛ لأنَّ
المصدر لا يثنى ولا يجمع ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ولتبلغوا
بالحمولة على بعضها والركوب عليها تبلغوا المواضع التي تقصدونها لحوائجكم
التي في صدوركم، وخواطركم تترقبونها، ولم تكونوا بالغيها لولا الأنعام إلا بشقِّ
أنفسكم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ
الْأَنفُسِ﴾^٢

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَفْئُكٍ تَحْمَلُون﴾ وعلى هذه المركوبات بأنواعها واختلافها على

١. النحل: ٨٠.

٢. النحل: ٧.

سطح الأرض والبرّ، وعلى الفلك والسفن في البحر تحملون وتبلغون مقاصدكم، والله تعالى هو الذي يسيّرهما في البحر يحملون بالريح إلى حيث تقصدون، وتبلغون أغراضكم منها، والله تعالى يعلم احتياج العباد إلى السفر في البرّ والبحر، فخلق مراكب للبرّ ومراكب للبحر. ولم يُقل: في الفلك للازدواج والتطابق والمشاكلة.

توبيخ منكري آيات الله تعالى ومذمتهم

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين جحدوا آياته، وأنكروا أدلته الدالة على توحيده وإخلاص العبادة. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ التكوينية والتشريعية من الحجج الإلهية، ومن الآيات التكوينية إهلاك الأمم الماضية؛ فإنهم بعد النعم العظيمة صاروا إلى النعم الرهيبة؛ لأنهم عصوا، فاقتضى ذلك العصيان أولاً والنقمان ثانياً.

﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ فأَيَّ حجج الله يريكم أيها الناس في السماء والأرض تنكرون صحتها؟ وتكذبونها، وتدعون من دونه إلهاً غيره؟ «وأي» للاستفهام التوبيخي، توبيخ لهم على جحدها، وإضافة الآيات إلى الله الاسم الجليل؛ لتعظيم المهابة، وتهويل إنكارها. وإنكارها الآية الإلهية تارة بجحدها أصلاً، وأخرى: بجحد كونها دالة على صحة ما هي دالة عليه، والخلاف في الدلالة يكون من ثلاثة أوجه: إما في صحتها في نفسها، أو في كونها دلالة، أو فيهما، وإنما يجوز من الجهال دفع الآية بالشبهة مع قوة الآية وضعف الشبهة لأمر: منها: اتباع الهوى، ودخول الشبهة التي تغطي الحجة حتى لا يكون لها في النفس منزلة. ومنها: التقليد لمن ترك النظر في الأمور. ومنها: السبق إلى اعتقاد فاسد بشبهة، فيمتنع ذلك من توليد النظر للعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ جَاءَتْ عَلَى اللَّعْنَةِ الشَّائِعَةِ الْمُسْتَفِيزَةِ الْمَقْبُولَةِ. وقولك: فأية آيات الله قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحمارة، وإنسان وإنسانة غريب، وهي في «أيّ» أغرب، لإيهامه؛ لأنّه اسم استفهام عمّا هو مبهم مجهول عند السائل. والتفرقة تنافي الإيهام؛ لأنّها تقتضي التمييز بين ما هو مؤنث ومذكر، فيكون معلوماً لا مبهماً مجهولاً. ومن قلّة تأنيث «أيّ» قوله:

بأيّ كتابٍ أو بأية سنّة ترى حبّهم عاراً عليّ وتَحسبُ

وما ذكرنا من تذكير «أيّ» مطابقاً لما هو الشائع المستفيض في غير النداء؛ فإنّ اللغة الفصيحة الشائعة أن تؤنث «أيّ» الواقعة في نداء المؤنث، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ولم يسمع أن يقال: يا أيّها المرأة بالتذكير. وهذا من أجل أنّ النداء يُخرج أيضاً من الإيهام في الجملة، فلا بدّ من الفرق بين المؤنث والمذكر.

[ترغيب الناس للسير في الدنيا لرؤية إبادة الأقويا]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

لما ذكر الله تبارك وتعالى فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، أرفده بفضلٍ في التهديد والوعيد، فحثّ تعالى أن ينظر المشركون الذين يجادلون في آيات الله، ويكابرون الرسول طلباً للرئاسة والجاه، والحصول على المال، وكسب الحظوظ الدنيا، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة، فما فيها من مالٍ وجاهٍ ظلّ زائل لا يغني من الله شيئاً.

وقد لَقَّتْ أنظارهم إلى الغابرين الذين كانوا قبلهم وكانوا أكثر عدداً، وأشدّ قوّةً وآثاراً في الأرض، فلم ينفعهم شيء من ذلك حين حلّ بهم بأس الله، وتركوا الشرك وآمنوا بالله وحده حين رأوا البأس الشديد، وأنّى لهم ذلك؟ وهيهات هيهات.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ صدّرت الآية بفاء التفريع وكأنّ الكلام تفريع على قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ففي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، فكانه لما ذمهم وأنكر إنكارهم لآياته، رجع وانصرف عنهم إلى النبي ﷺ مشيراً إلى سقوطهم من منزلة الخطاب، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أفلم يسر - يا رسول الله - هؤلاء

المجادلون في آيات الله من مشركي قومك في الأرض والبلاد بأن يمرّوا في جنباتها و جوانبها، فإنّهم أهل السفر إلى الشام واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا ممّن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجودهم آياتنا، كيف كان عاقبة المتكبرين المتمرّدين من الهلاك والبورار مع أنّهم كانوا أكثر عدداً، ومالاً، وجاهاً من هؤلاء المشركين المجادلين معك، ولم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة، والدولة القاهرة إلاّ الخيبة، والخسار، والحسرة والبورار؟ مع أنّهم كانوا أكثر عدداً من هؤلاء، وأشدّ بطشاً، وأقوى جنداً، وأبقى في الأرض آثاراً بالأبنية العظيمة التي بنوها، والقصور المشيدة التي شيّدوها، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ويتّخذون مصانع ونحوها.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا لم يغن عنهم ما كسبوه من الأموال والبنيان، وما كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئاً، ولكنّهم بادوا جميعاً فهلكوا.

ففي هذا مُعْتَبَرٍ إن اعتَبَرُوا، ومَتَّعَظَ إن اتَّعَظُوا، وأنّ بأسنا إذا حلّ بقوم مجرمين لم يدفعه دافع، ولم يمنع مانع، وهو واقع بهم إن لم ينيبوا إلى تصديقك. وما قلنا بناءً على كون «ما» الأولى نافية، والثانية موصولة مرفوعة، فاعل ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾.

وقيل: إنّ «ما» بمعنى أيّ وتقديره: فأَيّ شيء أغنى عنهم كسبهم على وجه التهجين لفعلهم، والتفريع لهم، فتكون «ما» الأولى نصباً ومفعولاً، وموضع الثانية رفعاً وفاعلاً. و«الفاء» في ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ نتيجة قوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾.

[في استحقاق المكذّبين للرسل أنبياء الله بما جاؤوهم]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾

فلما جاءت هؤلاء الأمم الماضية البائدة المكذّبة رسلها ﴿رُسُلُهُمْ﴾ الذين أرسلهم الله إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات من حجج الله عز وجل الداعية إلى توحيده وإخلاص العباد له.

و «الفاء» في ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ جارية مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَقَوْلِكَ: رَزَقَ زَيْدَ الْمَالِ، فَمَنْعَ الْمَعْرُوفِ، فَلَمْ يَحْسَنَ إِلَى الْفُقَرَاءِ. فَرِحُوا﴾ واستحقروا علم الرسل ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من العقائد الرائقة، والشبهات الداحضة بأنهم لن يبعثوا، ولن يعذبهم الله على طريق التهكم؛ لأنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب، وما أظن الساعة قائمة، وهذا جهل منهم بحقيقة ما تخيلوه علماً منهم، فأطلق اسم العلم على جهلهم على اعتقادهم، كما قال: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً^١ وَقَالَ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^٢﴾ يعني أنت العزيز الكريم

عند نفسك وعند قومك. والمراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهري، وانجذابهم إليه استهانتهم بها وسخريّتهم لها. و ربّما يقال: إنّ الضمير في ﴿فَرِحُوا﴾ يرجع إلى الرسل، وتقدير الكلام أنّه: لمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات، فوجدوها وأنكروا دلالتها، وعدّ الله تعالى الرسل بإهلاك أممهم، ونجاة الرسل، وفرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك، ومن الواضح أنّ في هذا التقدير تعسف وتكلّف؛ لما فيه من حذف مالا دلالة في الكلام على حذفه وهو وعد الله تعالى الرسل بالنجاة وإهلاك الأمم، والإنصاف أنّ هذا التأويل والتقدير خلاف ظهور الآية الشريفة، ولولاه لكان وجهاً لطيفاً.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ و«حاق بهم» جزاء جهلهم واستهزائهم من عذاب الله ما كانوا به ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ رسلهم، ويستعجلون بمواعيد عذابهم استهزاءً وسخريّةً.

[عدم فائدة الإيمان بالله بعد مجيء بأس الله تعالى]

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

ولكن هؤلاء المستهزئين المستعجلين والمكذّبين رسلهم، فلمّا رأوا بأسنا، أي عقاب الله الذي وعد به رسلهم، وقد حلّ بهم، والنقمات التي نزلت بهم والبأس شدة العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَيِّسٍ﴾^١ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ﴾، قالوا: كفرنا بالأصنام والأوثان، وأقررنا بتوحيد الله، وصدّقنا أنّه لا إله غيره، وخلعنا الأنداد من دونه.

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ وكفرنا وجحدنا المعبودات الباطلة التي كنّا قبل وقتنا هذا نشركها في عبادتنا الله، ونعبدها معه، ونَتَّخِذُهَا آلِهَةً وهي لا تجدي فتيلاً ولا قطنياً.

وفي تأويل الأبيات الباهرة في تفسير الآية الشريفة: قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره: ذلك إذا قام القائم عليه السلام في الرجعة. وفي كنز الدقائق: وفي عيون الأخبار في باب ما جاء به عن الرضا عليه السلام، عن العلل بإسناده إلى محمد بن إبراهيم بن محمّد

الهمداني، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لأيّ علّة غرّق الله تعالى فرعون وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟

قال: «لأنّه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية الباس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَاهُ وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وَهَكَذَا فرعون لما أدركه الغرق، قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ف قيل له: ﴿آلَا نَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾»، والحديث طويل أخذت منه موضع الحاجة.^١

في جريان سنة الله وعدم فائدة الإيمان بعد نزول البلاء

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ فلم يك ينفعهم تصديقهم بتوحيد الله عند معاناة عقابه النازل عليهم، وعذابه الحال بهم؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصداقاً، ولا الاعتراف معترفاً، بل إنهم صاروا عند ذلك ملجئين، وفعل الملجأ لا يستحق به الثواب، وقال تعالى لفرعون حين الفرق وحين قال: ﴿أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^١ ﴿سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ مطردة في كل الأمم بأن من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته، والسنة التي قد مضت في خلقه بأن الله تبارك وتعالى ترك إقالة الكافرين المشركين، وعدم قبول توبتهم، ومراجعتهم الإيمان بالله، وتصديق رسله بعد معاناة بأس الله قد نزل بهم. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ وخسر هنالك غبنت صفقتهم، وباعوا الآخرة بالدنيا،

و بدّلوا المغفرة بالعذاب والإيمان بالفكر.

وهناك اسم مكان استعير للزمان، أي خسر ذلك الزمان الكافرون برّهم. الجاحدون توحيد خالقهم، والمتخذون من دونه آلهة يعبدونهم من دون بارئهم. وفي كثر الدقائق:

وفي الكافي: محمد بن يحيى، عن محمد بن أحمد، عن جعفر بن رزق الله (أو رجل عن جعفر بن رزق الله) قال: قُدِّمَ إلى المتوكّل رجل نصراني فجر بأمرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه فأسلم. فقال يحيى بن أكنم: قد هدم إيمانه شركه وفعله. وقال بعضهم: يُضْرَب ثلاثة حدود. وقال بعضهم: يفعل به كذا وكذا. فأمر المتوكّل بالكتاب إلى أبي الحسن الثالث وسؤاله عن ذلك، فلما قرأ الكتاب كتب «يُضْرَب حتّى يموت»، فأنكر يحيى بن أكنم وأنكر فقهاء العسكر ذلك. فقالوا: يا أمير المؤمنين نسأل عن هذا، فإنّه شيء لم ينطق به كتاب، ولم تجب به سنة.

فكبت إليه، إنّ فقهاء المسلمين قد أنكروا هذا، وقالوا: لم تجب به سنة، ولم ينطق به كتاب، فبين لنا لِمَ أوجبت عليه الضرب حتى يموت؟ فكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ فأمر به المتوكّل، فضرب حتى مات^١.

اللَّهُمَّ، يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزّتك أقصى نعوت الناعتين، يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادئ أسرار كبريائه أفهام المتفكرين وأنظار المتأملين، لاتجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين.

ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين؛ فإنّك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين،
والحمد لله ربّ العالمين. والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الأطيبين
الأطهرين، واللّعة الدائمة على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين.



تمّ بالطفاء الله جلّ جلاله تبييض هذا التفسير المبارك في يوم العشرين من شهر
ذي القعدة الحرام، سنة ١٤٢٣ الهجرية القمرية (٨١/١١/٤) [المطابق ليوم الرابع
من الشهر الحادي عشر من سنة ألف وثلاثمائة وواحد وثمانين الهجرية الشمسية]
في كermanشاه بيد مؤلّفه ومفسّره عبدالله الفقير إليه مرتضى الحسيني النجومي غفر الله
له ولوالديه.

الحمد لله أولاً وآخراً

المصادر

- | | |
|--|--------------------------------------|
| القرآن الكريم | شيخ الطائفة. |
| ألف: المصادر التفسيرية | ١٢. جوامع الجمع، الطبرسي، |
| ١. تفسير ابن عباس، عبد الله بن عباس، | ١٣. الجواهر |
| صحابي. | ١٤. الدرّ اللقيط |
| ٢. تفسير أبي الفتوح الرازي | ١٥. الدرّ المنثور، السيوطي. |
| ٣. تفسير الاثنا عشري | ١٦. روح البيان، الآكوسي. |
| ٤. أحسن الحديث | ١٧. روح المعاني |
| ٥. أطيّب البيان | ١٨. الصافي، الفيض الكاشاني. |
| ٦. الانتصاف حاشية الكشف | ١٩. تفسير الطبري، محمد بن جرير طبري. |
| ٧. أنوار التنزيل | ٢٠. فتح القدير |
| ٨. البحر المحيط لأبي حيان | ٢١. الفرقان |
| ٩. البرهان | ٢٢. الكشف |
| ١٠. تأويل الآيات الظاهرة | ٢٣. كشف الأسرار |
| ١١. التبيان، أبو جعفر، محمد بن حسن الطوسي، | ٢٤. كنز الدقائق، لكراچكي. |

ب: المصادر الحديثية:

٣٩. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، محمد باقر.

٤٠. ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ابن بابويه.

٤١. الخصال، الشيخ الصدوق، ابن بابويه.

٤٢. الدروع الواقية

٤٣. سفينة البحار، الشيخ عباس القمي.

٤٤. معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ابن بابويه.

ج: المصادر اللغوية

٤٥. مجمع البحرين، الطريحي.

٤٦. المعجم المفهرس لألفاظ بحار الأنوار، مركز

التحقيقات لدفتر التبليغات.

٤٧. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن اثير

الحلي.

٤٨. لسان العرب، ابن منظور، الإفريض.

٢٥. مجمع البيان، الطبرسي

٢٦. مخزن العرفان

٢٧. تفسير المراغي للمراغي

٢٨. معاني القرآن للفراء، الفراء

٢٩. مفاتيح الغيب

٣٠. مقتنيات الدرر

٣١. منهج الصادقين، ملا فتح الله كاشاني.

٣٢. من هُدى القرآن

٣٣. الميزان، سيد محمد حسين الطباطبائي.

٣٤. نفحات الرحمن

٣٥. تفسير نمونه، الشيخ ناصر المكارم

الشيرازي.

٣٦. نورالثقلين

٣٧. النهر المادّ

٣٨. التفسير الوجيز

سوره مؤمن، چهلمین سوره قرآن و در ادامه مطالب سوره زمر، و نخستین سوره از حوامیم سبع و مشتمل بر موضوعات گوناگون اعتقادی مانند: عرش، کرسی، میزان و معاد و مطالب تاریخی نظیر: داستان موسی و مؤمن آل فرعون می باشد (تنها در این سوره از مؤمن آل فرعون سخن به میان آمده و شاید به همین مناسبت نام این سوره «مؤمن» است).

این سوره بیشتر به تهدید کافران و جباران، و دعوت به توحید و آیات الهی و بطلان شرک و کفر و دعوت مؤمنان به صبر و پایداری در راه خداپرستی پرداخته است.

المؤمن فى تفسير سورة المؤمن

آية الله سيد مرتضى حسينى نجومى
به اهتمام ناصر الدين انصارى قمى

بوستى
۱۳۸۹

Abstract

The surah of Al-Mumen (The Believer), which is the 40th surah of The Quran and the 1st surah of a group of surahs called Al-Hawamim (a title given to the seven surahs of The Quran which begin with the letters Ha, Mim.). The issues discussed in the surah of Al-Zumar (The Troops, Throngs) are continued in this surah. It embraces some ideological issues such as the Divine Throne, the Divine Pedestal, the balance, and resurrection, and some historical issues such as the stories of Moses and the Believing Man of Pharaoh's People. This has only been mentioned in this surah and may be the reason behind the naming of this surah. In this surah the oppressors and the individuals who reject faith are threatened and the believers are invited to patience and endurance in the way of worshipping God. Moreover, this surah invites to monotheism.

Būstān-e Ketāb Publishers

Frequently selected as the top publishing company in Irān, Būstān-e Ketāb Publishers is the publishing and printing house of the Islāmic Propagation Office of Howzeh-ye Elmīyeh-ye Ghom, Islāmic Republic of Irān.

P.O. Box: 37185-917

Telephone: +98 251 774 2155

Fax: +98 251 774 2154

E-mail: info@bustaneketab.com

Web-site: www.bustaneketab.com

The Believer

in the Exegesis of the Surah of Al-Mumen (The Believer)

Ayatollah Sayyid Morteza Husayni-Nojumi

Editor: Naser al-Din Ansari-Qomi

Bustan-e Ketab Publishers
1389/2010